الفصل الثاني
التعريف بالله وربط القلوب به

تمهيد:

ما كان لنا أن نطيل في عرض المسألة الأولى لولا ما أثير حولها من شكوك وشبهات تقتضي من الباحث أن يبين عوارها .

وقد آن لنا أن نبسط القول في المسألة الثانية ، وهي أهم مسائل هذا الباب ، وصلب هذه المباحث .

وقد سبق أن قررنا أن القرآن سلك سبيلين لتقرير هذه الحقيقة الكبيرة:

الأولى: الحديث عن بديع صنع الله في خلقه ، وبيان ما في هذا الكون من إعجاز يشي بعظمة الخالق سبحانه .

الثانية: الحديث المباشر عن الله: ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، ونعمه ومخلوقاته ، وسنحاول ـ إن شاء الله تعالى ـ أن نفصل القول في ذلك، والله المستعان .

المبحث الأول

دلالة الآيات الكونية على خالقها ومبدعها

المطلب الأول: منهج القرآن في الاستدلال بالآيات الكونية

١ـ ارتياد الكون عبر آيات القرآن

يأخذنا القرآن في جولات وجولات نرتاد آفاق السماء ، ونجول في جنبات الأرض ، ويقف بنا عند زهرات الحقول ، ويصعد بنا إلى النجوم في مداراتها ، وهو في كلّ ذلك يفتح أبصارنا وبصائرنا ، فيرينا كيف تعمل قدرة الله وتقديره في المخلوقات ، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكوين، ويهدينا إلى الحكمة من الخلق والإيجاد والإنشاء ، ويبين عظيم النعم التي حبانا بها في ذوات أنفسنا وفي الكون من حولنا .

إنه حديث طويل في كتاب الله يطالعك في طوال سوره وقصارها ، وهو حديث مشوق تنصت إليه النفس ، ويلذه السمع ، ويستثير المشاعر والأحاسيس .

ولقد طالعت الكثير مما توصل إليه العلم والعلماء في شتى جوانب الحياة يبينون أسرار الخلق ، ودلالة الخلق على الخالق ، فما وجدت في شيء من ذلك كلّه ما وجدته في القرآن من جمال وصف ، ووفرة علم، واستثارة مشاعر ، وحسن توجيه ، ودقة استنتاج ، وكيف لا يكون كذلك وهو تنزيل الحكيم الحميد !!

فعل الله في الكون:

تعال معي لنقوم بجولة مع الآيات القرآنية ؛ نرتاد هذا الكون ليرينا كيف تعمل قدرة الله في مختلف أرجاء الكون: في الحبّة تلقى في التربة فتنفلق ، وتضرب بجذورها في التربة ، فيخرج من الحبّة الجامدة حياة تتمثل في سوق، وأوراق ، وأزهار تفوح بالشذى ، وثمار يتغذى بها الإنسان والحيوان . وفي الإصباح وهو ينبلج ... وفي سكون الليل.. ومسير الشمس والقمر.. ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[1]

وانظر إلى مشهد السحاب كيف يصنعه الله ، والبرد كيف يكوّنه ويصرفه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[2].

ويحدثنا الله عن فعله في الظلّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾[3].

وانظر إلى تصريفه شؤون الحياة والأحياء والليل والنهار: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4].

لا يكتفي القرآن بأن يرينا قدرة الله وهي تعمل في الكون ، وعلمه يحيط

---

(١) سورة الأنعام: ٩٥ ـ ٩٦ .
(٢) سورة النور: ٤٣ .
(٣) سورة الفرقان: ٤٥ـ ٤٦ .
(٤) سورة آل عمران: ٢٦ـ٢٧ .

بالمخلوقات ، وتصريفه للشؤون المختلفة ... ولكنّه - مع ذلك - يعرفنا بالغاية التي خلق الكون من أجلها .

خلق الله هذه الأرض من أجل الإنسان ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[1] خلقها لنا على نحو يتوافق مع طبيعتنا وتكويننا ويحقق لنا الصلاح، وهذا ما سماه القرآن بالتسخير.

وهو لا يخبرنا بذلك مجرد إخبار ، وإنّما يوقفنا على هذا التسخير الذي جعله الله في الكون، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2]. فالنجوم خلقت لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

والأرض والسماء ، وإنزال الماء من السماء ، والسفن السابحة في البحر، والأنهار الجارية في جنبات الأرض ، والشمس والقمر ، وتعاقب الليل والنهار... كلّ ذلك مخلوق لنا ولخيرنا ولصلاحنا ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: ٢٩.
(٢) سورة لقمان: ٢٠.
(٣) سورة الأنعام: ٩٧.
(٤) سورة إبراهيم: ٣٢- ٣٤ .

٢ـ نعم الله في الكون

عرّفنا القرآن بأنَّ الله خلق هذا الكون وسخّره لنا ، فجعله متوافقاً مع جبلتنا ، وقدَّره تقديراً تصلح به حياة الإنسان ، والقرآن يتخذ من هذا الحديث والبيان سبيلاً ليشكر الإنسان ربَّه ، إذ الإنسان مفطور على حب من أحسن إليه ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[1].

ولذلك فقد أفاض القرآن في ذكر النعم التي حباها الله عباده في ذوات أنفسهم ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2]، وفي الكون من حولهم: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾[3].

وخلق لنا الشمس والقمر على نحو يحقق النفع والصلاح ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾[4].

والأنعام من الجمال والأبقار والأغنام، وكذلك الخيل والبغال والحمير خلقها لنا على نحو يفيدنا ويتناسب مع طبائعنا وتكويننا ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[5].

والبحر مخلوق لنا أيضاً، وفي خلقه على ما هو عليه ما يحقق لنا الشيء الكثير ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

---

(١) سورة الرحمن: ٦٠ .
(٢) سورة الملك: ٢٣.
(٣) سورة الزخرف: ١٠ـ ١٣.
(٤) سورة يونس: ٥.
(٥) سورة النحل: ٥ـ ٨ .

ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

والنحل خلقه الله ليقوم بذلك العمل الرائع، لينتج لنا ذلك الشراب المختلف الألوان، ليتغذى به البشر، ويكون لهم شفاء ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

التعرف على الله من خلال آياته الكونية سبيل حث عليه القرآن:

حث القرآن عباد الله على النظر في آيات الله الكونية: الأرض، والسماء، وما فيهما وما بينهما، وجعل النظر والتأمل في ذلك من الذكرى التي تنفع المؤمنين.

وقد أعجبني تسمية بعض المعاصرين لهذا المنهج (بقانون السير والنظر) لكثرة حث الآيات القرآنية على ذلك، وقد يكون السير والنظر حسيّان، فيسير المرء بقدميه، وينتقل من بلد لآخر، كما قد يكون النظر بالبصر، وقد يكونان بالفكر والعقل.

وقد جاء الأمر في القرآن أمراً عاماً ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]. وقد يأتي أمراً خاصاً ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾[4]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[5].

---

(١) سورة النحل: ١٤.
(٢) سورة النحل: ٦٨ ـ ٦٩.
(٣) سورة يونس: ١٠١.
(٤) سورة الطارق: ٥.
(٥) سورة عبس: ٢٤.

٣ـ استدلال القرآن بالآيات القرآنية على

استحقاق الخالق الربوبية والألوهية وبطلان ما يعبد من دون الله

يتخذ القرآن من الآيات الكونية مادة يناقش بها المشركين ، ويقيم بها الحجة عليهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١).

ويبين لهم فساد معتقداتهم في معبوداتهم ، فهي لا تملك صفات الربوبية والألوهية التي تستحق أن تعبد بها، وتتخذ آلهة من دون الله : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٢).

إنَّ الآيات تبين عدم صلاحية الآلهة المدعاة للعبادة ، فالله وحده الخالق للسماء والأرض ، المنزل للماء من السماء ، والمنبت به الحدائق التي تسرّ النفس وتبهج النظر ، وهو الذي جعل الأرض قراراً وسيّر خلالها الأنهار

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠ - ٣٣ .
(٢) سورة النمل: ٥٩ - ٦٤ .

وثبتها بالجبال . . . فهو المعبود الحق ، وغيره لم يفعل شيئاً ، فلا يستحق أن يعبد من دون الله .

وعلينا أن نستخدم هذا النوع من الاستدلال في مواجهة الكفرة والملحدين، فقد استخدمه الرسل من قبل، وأكثروا من الاحتجاج به، فهذا إبراهيم خليل الرحمن يناقش الملحد ، ويقيم عليه الحجة بهذا النوع من الاستدلال بحيث يخرس لسانه ويدهش فكره ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

وهذا موسى كليم الله يستخدم الاستدلال نفسه في مواجهة طاغية عصره فرعون ، ولا يزال يأتيه بالدليل في إثر الدليل حتى يعجزه ، فيلجأ إلى التهديد والوعيد: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

بل إن هذا النوع من الاستدلال طريقة جميع الرسل ، ارجع إلى سورة إبراهيم (آية ٩ ، ١٠) واقرأ ما قالته الأقوام المكذبة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، ثم إجابة الرسل حيث قالوا: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم ﴾[3].

فاستدلوا على صدق دعوتهم بأن الله ـ سبحانه ـ فاطر السموات والأرض أي موجدهما وخالقهما .

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٨ .
(٢) سورة الشعراء: ٢٣ - ٢٩ .
(٣) سورة إبراهيم: ١٠ .

الكفر مستنكر مستعجب مع وضوح الأدلة:

ولذلك يسأل القرآن سؤالاً يشي بالعجب من كفر الكافرين مع وضوح الأدلة والبراهين: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١).

ويسأل في آية أخرى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(٢).

إن مقتضى نظر الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله يوجب عليه التوجه إلى خالقه وتعظيمه، ولذلك كان غريباً كفر الكافرين، وجحد الجاحدين ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾(٣).

٤ـ الذين ينتفعون بآيات الكون هم أولو الألباب

إن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة؛ لأن هذه القلوب انكشفت عنها الحجب وتفتحت واتصلت بالكون العجيب، فالقرآن أقام الوصلة بين القلب البشري وايقاعات هذا الكون الهائل الجميل، وهذه الوصلة هي التي تجعل للنظر في كتاب الكون والتعرف إليه أثراً في هذا القلب البشري، وقيمة في الحياة البشرية. هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذي يعلم ويعرف، ولذلك نصَّ القرآن على أن الذي يهتدي بآيات الكون هم صنف معين من الناس ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٤).

---

(١) سورج البقرة: ٢٨ .
(٢) سورة الانفطار: ٦- ٨ .
(٣) سورة نوح: ١٣ - ١٨ .
(٤) سورة آل عمران ١٩٠ -١٩١ .

هؤلاء هم الذين ينتفعون بآيات الكون لأنهم لم يقفوا عند حدود المنظر المشهود البادي للعيان ؛ بل نظروا إلى اليد التي تسيره والقدرة التي تصنعه ، إنهم يستخدمون أبصارهم وأسماعهم وعقولهم وأفكارهم على خير وجه في هذا المجال ، مسترشدين بآيات الكتاب التي تعين السمع والبصر والفكر والعقل على التوصل إلى خير ما يمكن للإنسان أن يصل إليه ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

فالآيات تتكشف للذين يتفكرون ويسمعون ويعقلون ؛ أي على وجه الحقيقة المؤدية إلى المطلوب .

أما الكفار فإنهم يشاهدون الحدث ولا يتجاوزونه بعقولهم وأفكارهم إلى صانعه وخالقه، ولا يدركون الحكمة من وراء الخلق ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2].

ولذلك لم ينتفعوا بالآيات الكونية ؛ لأنهم لم ينظروا إليها من خلال المنظار القرآني : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[3].

ولذلك فإن القرآن ينكر على الكافرين والجاحدين تركهم النظر والاعتبار ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الروم: ٢١ - ٢٤ .
(٢) سورة الروم: ٧ .
(٣) سورة يونس: ١٠١ .
(٤) سورة الأعراف: ١٨٥ .

٥ـ العلوم الحديثة تقطع الوشيجة بين الناس والكون

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: « إن مناهج البحث التي يسمونها «علمية» في هذا الزمان تقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه .

فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون ، وإلا حين تقوم وثيقة بين قلوبهم وايقاعات هذا الكون الكبير ، وكل معرفة بنجم من النجوم ، أو فلك من الأفلاك ، أو خاصة من خواص النبات والحيوان ، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال ، وما فيه من عوالم حية وجامدة ـ إذا كانت هناك عوالم جامدة ـ أو أي شيء واحد جامد في هذا الوجود !

كل معرفة « علمية » يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشري ، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون ، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء ، وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموحية المؤثرة في حياة البشر ، هي معرفة ناقصة ، أو علم زائف، أو بحث عقيم .

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح الذي يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة وساكن الكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور ، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده ، فيجد فيه زاداً من الحق ، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق ، وهو قائم مفتوح في كل آن ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[1] .

ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة ، أو يقطع الوشيجة بين القلب البشري والكون الناطق المبين ، لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة (المنهج العلمي) ، المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه.

والمنهج الإيماني لا ينقص شيئاً من ثمار « المنهج العلمي » في إدراك

---

(١) سورة ق: ٨ .

الحقائق المفردة ، لكنه يزيد ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض ، وردها إلى الحقائق الكبرى ، ووصل القلب البشري بها ، أي وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود ، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم ، لا معلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تفضي لها بشيء من سرّها الجميل ، والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يهتدى إليها ، بهذا الرباط الوثيق . . »[1] .

٦ـ دلالة الخلق على صفات الخالق

إذا نظرنا إلى آلة دقيقة الصنع ، بديعة التكوين ، غاية في القوة والمتانة، تقوم بعملها على خير وجه ، فلا بدَّ أن ندرك بلا كثير تفكير أن صانعها يتصف بصفة الحياة والعلم ولديه قدرة وإرادة . . . إلى آخر تلك الصفات التي تنبئنا عنها الآلة .

وهذا الكون يشي ويعرّف بكثير من صفات الخالق ، فمن ذلك:

قدرته وعلمه: هذا الكون الهائل الضخم الشاسع الواسع السائر وفق نظام دقيق لا بدَّ أن يكون صانعه قديراً عليماً والله خلق الخلق بهذا التكوين الهائل وهذا النظام الكامل ليعرفنا بقدرته وعلمه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[2] .

ولا بد أن يكون العلم الذي يحكم هذا الكون شاملاً كاملاً ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3] .

وهو حكيم: فالنظر في هذا الكون يشي بأنّه محكم متقن قد وضع كلّ

---

(١) في ظلال القرآن: تفسير سورة (ق) ، آية (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) .
(٢) سورة الطلاق: ١٢ .
(٣) سورة الأنعام: ٥٩ .

شيء منه في موضعه المناسب ، وخُلق بالمقدار المناسب ، في غاية الجودة والإتقان ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾(١)، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾(٢).

ولذلك فإن الناظر المتبصر في خلق الله لا يرى إلا الكمال والإتقان ، ولو بحث عن عيب في الخلق لأعجزه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(٣).

صفات أخرى: ما ذكرناه من دلالة الخلق على بعض صفات خالقه أردنا به التمثيل ، لا الحصر والاستقصاء ، وهو تمثيل يفتح الباب للاستدلال والبحث ، وإلا ففي الكون الكثير من الآيات الدالة على عظمة الله وعزته ولطفه ، واستمع إلى الصفات الإلهية التي ذكرها الله في ختام كلّ آية من الآيات التالية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

---

(١) سورة النمل: ٨٨ .
(٢) سورة السجدة: ٧ .
(٣) سورة الملك ٣ - ٤ .
(٤) سورة الحج: ٦٣ - ٦٥ .

٧ـ الله وحده المستحق للعبادة

الهداية التي يجلبها النظر والتفكر في الآيات الكونية توجه إلى عبادة الله وحده ، فالله وحده هو الخالق المدبر المقيم للسموات والأرض الرازق المحيي المميت . . . ؛ لذلك فهو المستحق للعبادة دون سواه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[2].

وبهذا الطريق ـ كما سبق ـ أثبت القرآن بطلان الآلهة المدعاة وعدم استحقاقها شيئاً من العبادة ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ۖ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

ولذلك فإنَّه يذكِّر خلقه بالآيات الكونية وتصريفه الأمور وتدبيره الشؤون ثم يعقب على ذلك في كثير من آي القرآن بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾[4] أي ذلكم الإله الذي يستحق العبادة دون سواه .

استمع إلى هذه الآيات وتأمل التعقيب عليها: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: ٢١ - ٢٢ .
(٢) سورة فاطر: ٣.
(٣) سورة لقمان: ١٠ـ ١١.
(٤) سورة الزمر: ٦ .
(٥) سورة الزمر: ٥ ـ ٦ .

المطلب الثاني: العلماء يبينون عجائب صنع الله في خلقه

وكان العلماء ولا يزالون يبينون عجائب صنع الله في خلقه ، ويعظون أنفسهم بذلك ، كما يعظون غيرهم ، وسننقل طرفاً مما توصل إليه العلماء في هذا المجال في القديم والحديث .

وأحب أن يضع القارئ نصب عينيه وهو يقرأ هذه المقتطفات قول موسى لفرعون: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [1] . فالله أعطى كل شيء خلقه الذي يناسبه ، وهداه لما فيه صلاحه .. وسنرى نماذج من هذا الإعطاء وتلك الهداية .

١ـ تكون الأجسام من الخلايا وانقسامها

أ ـ مم تتكون أجسام الأحياء وكيف ؟

يقول باحث معاصر هو الدكتور يوسف عز الدين مجليا هذا الموضوع: «معظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من تلك الوحدات الدقيقة الحجم التي نسميها (الخلايا) ، كما يتكون المبنى من مجموعة من الأحجار المرصوصة » .

ب ـ لماذا تنقسم الخلايا دائماً ؟

ويتابع الدكتور يوسف عز الدين كلامه مبيناً السر في انقسام الخلايا فيقول: « وخلايا أجسامنا وأجسام غيرنا من الحيوانات دائمة الانقسام ، وذلك الانقسام قد يكون لنمو الجسم ، أو لتعويض ما يفقد أو يموت من الخلايا لأسباب عديدة . وكلٌ خلية من هذه الخلايا تتكون أساساً من مادة عجيبة نطلق عليها اسم « البروتوبلازم » .

وتوجد بداخل كل خلية محتويات عديدة ذات وظائف محددة ، ومن هذه المحتويات أجسام دقيقة تحمل عوامل وراثية هي التي نطلق عليها اسم «الكروموسومات » .

---

(١) سورة طه: ٥٠.

وعـدد هذه « الكروموسـومـات » ثابت في خـلايا كلّ نـوع من أنواع الحيـوانات والنباتات المختلفـة ، فعددها في خـلايا القط ـ مثـلاً ـ يختلف عن عددها في خلايا الكلب أو الفيل أو نبات الجزر أو الفول .

وفي كل خليّة مـن الخـلايا التي يتكون منهـا جسـم الإنسـان يوجـد سـتـة وأربعون من هذه (الكروموسومات) .

وعندما تنـقسم الخلية إلى خليـتين داخل أجسـامنا فإنّ كلّ خليـة جديدة لا بدّ أن تحـتـوي علـى العـدد نفسـه من (الكروموسـومـات) ، وهي سـتـة وأربعـون، إذ لو اختل هذا العـدد لما أصبح الإنسان إنساناً . والخـلايا كمـا ذكرت دائمـة الانقسام ، يحـدث هذا في جميـع ساعات اليـوم حتى في أثناء نومنا ، ونحن حـتى الآن لا ندرك حقـيقـة القوى المـهيـمنة على هذه العمليـة المذهلة: عملية انقسام الخلايا ، بل يكتفي العلم بوصف الخطوات العملية التي يمكن مـلاحظتـهـا تحت عـدسـات (المـيكروسكوب) العـادي أو عن طريق (الميكروسكوب الألكتروني) الذي يكبر الأشياء تـكبيراً أكثـر بكثير من تكبـير الميكروسكوب العادي » .

جـ ـ لماذا تختلف الخلايا التناسلية عن غيرها ؟

وذكر الدكتور يوسف: « أن جميع الخلايا الناتجة عن عمليات الانقسام في جسم الإنسان لا بدّ أن تحـتوي على ستة وأربعين (كـروموسوماً) فيـما عدا نوعين من الخـلايا ، همـا الخـلايا التناسليـة ، أي الحيـوان المنوي في الذكـر والبـويضـة في الأنثى ، وعندمـا تنقـسم خـلايا الأنسـجـة لتكوين هذه الخـلايا التناسلية فإنها تنتج خلايا لا تحتوي على الستة والأربعين (كروموسوماً) ، بل تحـتوي علـى نصف هذا العدد ، أي يـصبح في كل خـلية تناسلـية ذكـرية أو أنثوية ثلاثة وعشرون (كروموسوماً) فقط » .

ثم بين لماذا يحـدث ذلك ، فـقـال: « يحـدث هذا لحكمـة بالغـة ولهـدف عظيم، إذ أنّ الخليـة الذكـرية (الحـيـوان المنوي) لا بـدّ أن تندمج مع الخليـة الأنثـوية (البـويضة) لتـكوين أول خليـة في جسم الجنـين ، وهي التي نطلق

عليها اسم (الخلية الملقحة)، حيث ينضم الثلاثة والعشرون (كروموسوماً) التي في الخلية الذكرية إلى الثلاثة والعشرين (كروموسوماً) التي في الخلية الأنثوية لكي يعود عدد (الكروموسومات) في الخلية الجديدة إلى العدد الأصلي ،وهو ستة وأربعون (كروموسوماً).

وهذه الخلية الملقحة التي أصبحت تحتوي على ستة وأربعين (كروموسوماً) توالي انقسامها ، فتصبح خليتين ، ثم أربع خلايا ، ثم ثماني خلايا وهكذا، حتى يتم تكوين الجنين الذي يخرج من رحم أمه ، ويستمر نموه عن طريق انقسام الخلايا حتى يصبح إنساناً كامل النمو في كلٍّ خلية من خلاياه ستة وأربعون (كروموسوماً) كما هو الحال في خلايا جسد أبيه وأمه وأجداده وجميع أفراد الجنس البشري » .

« إنَّ اختزال عدد (الكروموسومات) إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية بالذات لكي تندمج فيعود العدد الأصلي (للكروموسومات) في الخلايا لا يمكن مطلقاً أن يكون نتيجة مصادفة عمياء ، بل لا بدَّ أن يكون نتيجة تقدير دقيق من قوة عليا تعلم ماذا تفعل .

وهي في الوقت نفسه لا يمكن أن تخضع للتجربة واحتمال الخطأ ، إذ لو حدث خطأ مرة واحدة عند بدء الخلق لقضي على الكائن الحي قبل تكوين الجيل الثاني . أي إنّ هذا الترتيب لا بد أن يكون قد تم منذ تكوين أول جنين ظهر في الوجود ، ألا يكفي هذا وحده دليلاً على وجود قوة عليا مدبرة مقدرة حكيمة ؟ » .

د ـ لماذا لا تنقسم خلايا المخ ؟

أما النوع الآخر من الخلايا التي تخالف بقية خلايا الجسم فهي خلايا الدماغ ، وهي تخالف بقية الخلايا في كونها لا تنقسم ، وعن السر في عدم انقسامها يقول الدكتور يوسف عز الدين:

« لا يمكن أن يكون عن طريق التجربة واحتمال الخطأ والصواب أن الخلايا الوحيدة التي لا تنقسم هي الخلايا العصبية التي يتكون منها المخ وباقي الجهاز العصبي ، لو انقسمت كما يحدث لباقي الخلايا لحدثت كارثة مروعة، إنَّ خلايا المخ في هذه الحالة لن يمكنها الاحتفاظ بشخصية الإنسان ، وسوف تتلاشى جميع معالم الذاكرة في خلال ساعات قلائل .

إنَّ عدد خلايا المخ عند ولادة الإنسان أو أي حيوان آخر لا تزيد عليها خلية واحدة حتى وفاته ، بينما نجد أنَّ الكرات الدموية الحمراء التي تسبح في الدم ، ما هي إلا خلايا تموت ، ويحلُّ محلها خلايا جديدة كلّ نحو مائة يوم . وتتكون الخلايا الحمراء (الكرات الحمراء) في نخاع العظام ، ثم تنطلق لكي تسبح في تيار الدم ؛ لتحل محل الخلايا التي استهلكت » .

هـ ـ السر في تفاوت قوة عضلات الجسم:

ويتحدث الدكتور عن هذا الموضوع فيقول: « أقوى عضلات في جسم الإنسان أو الحيوانات الثديية هي عضلات الرحم عند الأنثى ، تلك التي تدفع الجنين ليخرج من بطن أمه ، إذ لو لم تكن هذه العضلات بهذه القوة منذ بدء خلق الإنسان أو غيره من الحيوانات لما خرج إلى الوجود أول جنين من بطن أمه .

وتلي عضلات الرحم في القوة عضلات القلب والفكين ، فعضلات القلب لا بد أن تكون قوية لتصمد للعمل ليلاً ونهاراً لدفع الدم إلى الأوعية الدموية لمدة قد تطول لأكثر من مائة عام ، وكذلك الحال في عضلات الفكين التي ينبغي أن تظلَّ قادرة على دفع الأسنان لينطبق بعضها على بعض لكي تمضغ أطناناً من الطعام طوال حياة الإنسان » .

٢ـ مقاومة الأحياء لعوامل الفناء

ويقرر الدكتور يوسف: « وجود صفة مهمة تشترك فيها جميع الكائنات الحيَّة من أدناها إلى أرقاها ، هذه الصفة هي مقاومة عوامل الفناء ، إذ إنّ خالق جميع هذه الكائنات يريد لها البقاء .

إنَّ (فيروس الأنفلونزا) يتشكل من آنٍ لآخر بأشكال مختلفة ؛ لتصعب مقاومته والقضاء عليه ، والحشرات مع توالي الأجيال تكتسب مناعة ضدَّ المبيدات الكيميائية؛ لكي تقاوم عوامل الفناء وانقراض الجنس.

بل في الإنسان نفسه لوحظ كثرة الإنجاب في فترات الحروب ، كما لوحظ أنَّ أية سيدة تواظب على تناول حبوب منع الحمل مدة طويلة ثم تسهو عن تناولها بعض الأيام ـ فإنَّ النتيجة في معظم الأحيان تكون إنجاب عدة توائم ؛ لتعويض النقص في الذرية الذي حدث في أثناء فترة الامتناع عن الحمل. وإذا استأصل الإنسان إحدى الكليتين لسبب من الأسباب فإنَّ الكلية الباقية يزداد حجمها وتؤدي عمل الكليتين ، وكأن في الجسم عقلاً يدرك به ما حدث من نقص فيسرع لتعويضه .

الله وحده هو الذي زود هذه المخلوقات بهذه القدرة العجيبة على التوازن حتى لا تنقرض وتتعرض للفناء ، كما زود العديد من الحيوانات بوسائل للدفاع عن أنفسها لا يختلف في ذلك الإنسان عن العقرب أو الثعبان أو أم أربعة وأربعين أو غيرها .

لا يمكن أن يكون هذا المبدأ أو القانون الذي يسود جميع الكائنات الحية من صنع مصادفة عمياء تتخبط في الظلام ، إذ إنّ المصادفة لا يمكن أن تتخذ مظهر قانون عام تخضع له جميع الكائنات » .

٣ـ هداية النحل وشيء من عجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم [١] رحمه الله تعالى عن بدائع صنع الله في خلقه ، مبيناً هداية الله للنحل في أمور معاشه: « وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميراً ومدبراً ، وهو اليعسوب ، وهو أكبر جسماً من جميع النحل ، وأحسن لوناً وشكلاً .

وإناث النحل تلد في إقبال الربيع [٢]، وأكثر أولادها يكنَّ إناثاً ، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها ، بل إما أن تطرده ، وإما أن تقتله ، إلا طائفة يسيرة منها ، وذلك أن الذكور منها لا تعمل شيئاً ولا تكسب.

والنحل تقسم فرقاً فرقاً، فمنها فرقة تلزم الملك ، ولا تفارقه ، ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه، والشمع هو ثفل العسل ، وفيه حلاوة كحلاوة التين ، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل ، فينظفه النحل ، ويصفيه ، ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها ، وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء ، وتحمله على متونها ، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل ، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال ، وتعديهن ببطالتها ومهانتها .

وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته ، فيُبنى له بيت مربع يشبه السرير والتخت ، فيجلس عليه ، ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص ، لا يفارقنه ، ويجعل النحل بين يديه شيئاً يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه ، ويملأ منه الحوض ، ويكون ذلك طعاماً للملك وخواصه .

ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع ، كأنها قرأت كتاب إقليدس ، حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها ؛ لأنَّ المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة

---

(١) شفاء العليل: ١٠١ ، وما نقلناه عن ابن القيم يدلنا على أن السلف الصالح كانوا يعنون بالتأمل في خلق الله ، ويدلنا على أن ملاحظة العلماء المسلمين بلغت مبلغاً كبيراً ، إلا أنها لم تخل من أخطاء ، فالنحل ليس له ملك بل ملكة .

(٢) الذي يبيض من النحل ملكة النحل فحسب .

والسعة، والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى ، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضاً ، حتى يصير طبقاً واحداً محكماً، لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر .

فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله ، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين: أحداهما: أن لا تكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً . والثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض ، وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعاً، ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط ؛ فإن المثلثات والمربعات ، وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها ، بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة ، وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين ، فهداها ـ سبحانه ـ إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرة ولا آلة، ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة .

فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها وتأتيها ذللاً لا تستعصي عليها ، ولا تضل عنها ، وأن تجتني أطيب ما في المراعي وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية ، فتصب فيها شراباً مختلفاً ألوانه، فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصاً تسيح سهلاً وجبلاً ، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار ، فترجع بطاناً .

وجعل ـ سبحانه ـ في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جنته، فتعيده حلاوة ونضجاً ، ثم تمجه في البيوت ، حتى إذا امتلأت ختمتها، وسدت رؤوسها بالشمع المصفى ، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته ، فاتخذت فيه بيوتاً ، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى ،

فـإذا برد الهـواء ، وأخلف المرعى ، وحـيل بينهـا وبين الكسب ، لزمت بيـوتهـا، واغـتذت بمـا ادخرته مـن العسـل ، وهي في أيام الكسب والسـعي تخـرج بكرة وتسيح في المراتـع ، وتستـعمل كل فـرقة مـنها بما يخـصهـا من العمل ، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها .

وأمـا الملك فـلا يكثـر الخـروج من الخـليـة إلا نادراً إذا اشتـهى التنزه ، فيـخرج، ومعه أمـراء النحل والخدم ، فيطوفُ في المروج والرياض والبـساتين ساعة من النهار ، ثم يعود إلى مكانه .

ومن عـجيب أمـره أنه ربما لحقـه أذى من النحل أو من صاحب الخلـية أو من خـدمه ، فيـغضب ويخـرج من الخليـة ، ويتبـاعد عنهـا ، ويتبـعه جميع النحل ، وتبقى الخلية خالية .

فإذا رأى صاحبهـا ذلك، وخاف أن يأخذ النحل ، ويذهب بها إلى مكان آخـر احتـال لاسترجاعـه وطلب رضـاه ، فيـتعـرف مـوضعـه الذي صار إليـه بالنحل، فيـعرفه باجـتماع النحل إليـه ، فإنها لا تفارقـه ، وتجتمع عليـه حتى تصـيـر عليـه عنقـوداً ، وهو إذا خـرج غـضـباً جلـس على مكان مـرتفع من الشجرة ، وطافت به النحل ، وانضـمت إليه ، حتى يصير كالكـرة ، فيأخذ صاحب النـحل رمحاً أو قـصبـة طويلة ، ويشد على رأسـه حزمة مـن النبات الطيب الرائحة العطر النظيف ، ويدنيه إلى محل الملك، ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب فيحركـه ، وقد أدنى إليه ذلك الحشيش ، فـلا يزال كذلك إلى أن يرضـى الملك ، فإذا رضي وزال غـضـبه طفـر ووقع على الضـغث، وتبعـه خدمـه وسائر النحل ، فـيحـمله صاحبه إلى الخلـية ، فـينزل ويدخلهـا هو وجـنوده ، ولا يقع النحل على جـيـفـة ولا حـيـوان ولا طعام.

ومن عـجيب أمـرها أنها تقـتل الملوك الظلمة المفـسدة،ولا تدين لـطاعتـها، والنحل الصـغار المجـتمـعـة الخلق هي العسـالة ، وهي تحـاول مقـاتلة الطوال القليلة النفع وإخـراجـها ونفـيـها عن الخـلايا، وإذا فعـلت ذلك جاد العـسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته .

ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم ، وبينها وبين العسالة حرب ، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها ، وتقصد هلاكها ، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها ، فإذا هجمت عليها في بيوتها حاولتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل ، فلا تقدر على الطيران ، ولا يفلت منها إلا كلٌّ طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى ، فحملتها وألقتها خارج الخلية .

وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد ، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة ، فالكرام دائماً تطردها وتنفيها عن الخلية ، ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها .

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه ، ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير ، وتكره النتن والروائح الخبيثة ، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهاداً من الكبار ، وأقل لسعاً وأجود عسلاً ، ولسعها إذا لسعت أقل ضرراً من لسع الكبار .

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه فقد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها ، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان له أعداء ؛ وكان أعداؤه من أقل الحيوان منفعة وبركة، هذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم »[1].

---

(١) شفاء العليل: ص١٠١ .

الباحثون المعاصرون يتحدثون عن عالم النحل [1]

تقدم العلم اليوم ، وبتقدمه تعرفنا على كثير من عجائب الخلق وأسرار الكون ، لقد أكد لنا العلماء ما عرفناه من قبل من أن عالم النحل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: النحلة الملكة، والنحلة الذكر، والنحلة الشغالة.

أما ملكة النحل فهي أم الخلية كلها ، وجميع النحل في الخلية أبناؤها، ويكفي أن تعلم أن الملكة تضع في كل يوم تطلع فيها الشمس ما بين (١٥٠٠) بيضة إلى (٢٠٠٠) بيضة ، بل يزيد العدد إلى (٣٥٠٠) بيضة. ويستمر هذا على امتداد موسم التكاثر الذي يبدأ من إقبال الربيع ، وينتهي بانتهاء الصيف .

وما هذا العدد الهائل من البيض إلا لمواجهة النقص المستمر الذي يصيب خلية النحل ، فالنحلة عمرها قصير ، فهو يتراوح بين خمسة أسابيع وسبعة أسابيع ، ولذلك فإنَّ الخلية تحتاج إلى أجيال جديدة ترفد الخلية بأعداد كبيرة تواجه النقص الذي يلحق بها ، كي تستمرَّ الخلية في القيام بالواجبات التي يحتاج إليها عالم النحل، وحتى تستطيع الدفاع عن نفسها في مواجهة الأعداء والأخطار، ولولا ذلك لانقرضت الخلية وبادت.

ومن بديع صنع الله في ملكة النحل أنها تضع بيضها في البيوت التي تبنيها الشغالة بمقاسات مختلفة ، فالمقاس الكبير يعده النحل لملكة المستقبل، والبيضة التي تضعها الملكة فيه تكون ملكة ، والبيضة التي تضعها الملكة في البيت الأصغر حجماً ومقاسه ربع إنش تصبح نحلة ذكراً ، أما البيضة التي تضعها في البيت الصغير ومقاسه خمس إنش فتنتج نحلة شغالة ، بقي أن نعلم أن الملكة تضع مع بيضة النحلة الشغالة ثلاثة إلى أربعة حيوانات منوية لإخصابها، فتكون نحلة شغالة ، بينما تضع، في بيت النحلة الذكر بيضة غير مخصبة .

ومن عجيب صنع الله في النحلة الملكة أنها لا تُلقَّحُ إلا في الهواء في أثناء طيرانها ،ولذلك سرّ عجيب ، فالنحلة الذكر لا يمكنها تلقيح الملكة وهي

---

(١) المعلومات التي أوردناها في هذا المبحث مأخوذة من كتاب: « النحلة تسبح الله » ، لمحمد حسن حمصي ، ولكن بتصرف كثير في الصياغة ،والتقديم والتأخير والاختصار .

رابضة على الأرض ، ذلك أن عضو التذكير عندها كامن ، ولا يمكن ظهوره إلا إذا حلقت في الفضاء ، وعند ذلك تمتلئ أكياس موجودة في النحلة الذكر بالهواء ، فتنفتح في أثناء الطيران ، ويؤدي انتفاخها إلى الضغط على عضو التذكير ، فيخرج من مكمنه .

ومن عجائب صنع الله في الملكة العذراء قدرتها على دعوة الذكر لتلقيحها، وذلك بأصوات تصدرها تدعو بها الذكور إليها ، وتخرج من خليتها حائمة حولها مصدرة تلك الأصوات ، وتستقبل الذكور هذه الدعوة لا في الخلية وحدها ، بل في جميع الخلايا المجاورة ، وتنطلق أسراب الذكور خلف الملكة ، وهي تغذ السير منطلقة في الفضاء الرحب، ويفوز بتلقيحها أقوى الذكور وأشدها وأسرعها ، ولكنه يفقد حياته بعد ذلك ، ذلك أنه بعد تلقيحه الملكة يفقد عضو تذكيره ، إذ يبقى عضوه فيها مما يسبب له نزيفاً يفقده حياته .

ويسأل القارئ عن كيفية سماع الذكور لدعوة الملكة ، والجواب: أن الله زود كل نحلة بقرني استشعار ، وهذان القرنان يتألفان من حلقات متصل بعضها ببعض ، عليها عدد كبير من الثقوب ، ويبلغ عدد الحلقات في الذكر اثنتاعشرة حلقة، في حين أن عددها في الشغالة أو الملكة أحدى عشرة حلقة.

وتبلغ عدد ثقوب الحواس الكائنة على قرن الاستشعار عند الذكر (٢٨٠٠) ثقبٍ، وفي الشغالة (٢٤٠٠) ، وفي الملكة (١٦٠٠).

والحقيقة أن قرني الاستشعار في النحلة بمنزلة هوائي الإذاعة يستخدمه لالتقاط الأصوات الصادرة من الملكة ، ولغير ذلك من الأصوات ، كما تستخدمه في الشم والسمع واللمس .

وإذا فقدت النحلة الشغالة أو الذكر أو الملكة قرني الاستشعار فإنها لا تستطيع أن تقوم بدورها ، ففيه يتركز معظم حواسها: السمع والشم واللمس كما سبق .

وتكوين النحلة الذكر يتناسب مع المهمة التي خلق من أجلها ، فهو كبير

قوي ، يأكل كثيراً ، ولا يعمل شيئاً ، فلا يجمع الرحيق ، ولا يصنعه ، ولا يبني ، ولا يحرس ، حتى طعامه ، تضعه النحلة الشغالة في فمه ، كل ما يستطيع القيام به هو تلقيح الملكة ، ولذا فإن النحلة الشغالة بعد انتهاء مهمته تمتنع عن امداده بالغذاء ، وأكثر من هذا تهاجم الشغالة الذكور فتقتلها أو تطردها .

بقي أن نعلم أن عدد الذكور من النحل قليل بالنسبة لتعداد النحل ، فلا يتجاوز عددها في الخلية الواحدة المائتين .

أما النحلة الشغالة فإنها تكون العدد الأكثر في الخلية ، كما أنها العنصر الفعال فيها ، وهي التي تقوم بالأعمال المختلفة ، والمهمات الصعبة .

فهي التي تجني الرحيق ، وتجمع غبار الطلع ، وتصنع العسل ، وتمدّ الملكة بغذائها الخاص ، وتبني الأقراص التي يحفظ فيها العسل ، وتربي فيها الأجيال الجديدة من النحل ، وتحرس الخلية ، وتقوم بتنظيفها ، والمحافظة عليها ، بل تقوم بتهويتها وتدفئتها .

والمهمات في الخلية موزعة في تخصصات وهذه التخصصات ترتبط بعمر النحلة ، فلكل سن من النحل عمل يقوم به ، وكلما امتد العمر بالنحلة فإنها تتحول إلى عمل آخر ، وبذلك تقوم النحلة بعد أن تستكمل عمرها بالمرور على كل الأعمال والمهمات التي تحتاج إليها الخلية ، ويلاحظ أن النحلة تبدأ بالأعمال السهلة التي لا تحتاج إلى جهد كبير ، وتنتهي إلى أشق الأعمال وأصعبها وهي الجولان في الحقول ، وجني الرحيق وغبار الطلع والماء ، ثم صنع العسل وتخزينه ، ونلاحظ أيضاً أنها تتدرج في الوظائف بحسب تكامل الخصائص التي يهبها الله إياها ، فكل مهمة تصير إليها وتعمل فيها تتواءم مع تكامل أجهزتها التي تمكنها من القيام بالدور الجديد والمهمة الجديدة .

فالنحلة الشغالة في يومها الأول والثاني تقوم بمهمة تنظيف البيوت التي خرجت منها أجيال النحل التي تكامل خلقها ، فتنظف هذه البيوت ، وتعدها لأجيال أخرى ، ولا تضع الملكة البيض في هذه البيوت إلا بعد أن

تتفحصها وتجدها نظيفة تماماً .

وفي يومها الثالث والرابع تقوم بدور الحاضنة ليرقات النحل الشغالة والذكور التي يزيد عمرها على ثلاثة أيام ، فتقدم لها ما يسميه العلماء (بخبز النحل) وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح ، تأخذه مما خزنته النحل في العيون السداسية .

وبعد اليوم الخامس حتى اليوم الثاني عشر من عمر النحلة تقوم بتغذية النحلة الملكة بالغذاء الملكي طيلة عمرها ، كما تمدُّ بهذا الغذاء الفاخر صغيرات الشغالة والذكور في يومهن الأول والثاني والثالث ، والنحل يقوم بهذه المهمة في هذه السن (٥ ـ ١٢) لنمو غدد خاصة في هذه الفترة في جانبي البلعوم ، تتمكن بها النحل من صناعة الغذاء الملكي .

وبعد اليوم الثاني عشر تتمكن النحلة من الطيران ، ولكنها لا تذهب بعيداً ، كل ما تفعله أن تتعلم وتتمرن ، ومهمتها الرئيسية من اليوم الثاني عشر إلى اليوم الثامن عشر هو بناء الأقراص الشمعية التي تعد لتخزين العسل، وتربية أجيال النحل الجديدة .

والسبب في تخصصها بهذا الدور في هذه السن هو نمو أربعة أزواج من الغدد الموجودة على حلقات البطن ، ومن هذا الشمع باستخدام النحلة فكيها تقوم النحل في هذه السن ببناء تلك البيوت التي بلغت الغاية في الدقة والاتقان بأبعاد محددة وأشكال هندسية في غاية الروعة والتنظيم .

وفي اليوم التاسع عشر واليوم العشرين تقوم النحلة بتنظيف الخلية وحراستها ، وبعد اليوم العشرين تقوم النحلة بالانطلاق إلى الحقول وجمع الرحيق وغبار الطلع وصنع العسل ، وجلب الماء إلى الخلية ، وهذه المرحلة الأخيرة تمثل الجزء الأكبر من عمر النحلة .

أجيال تذهب من النحل ، وأجيال تأتي ، ويترقى النحل في سلسلة متوالية من الأعمال تضمن القيام بالأعمال كلها باستمرار من غير أن تتخصص طائفة من النحل بعمل طيلة عمرها ، ولكن التخصص يأتي في كل مرحلة من مراحل العمر .

سبحان الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي خلق هذه الكائنات الصغيرة، وعلمها أن تقوم بهذه الأعمال بمثل هذه الدقة والاتقان ، إنه إبداع وإعجاز يدل على العليم الخبير .

ومن الإبداع الإلهي في النحلة هذا التكوين الذي أعطاه الله إياها ، فقد جعل لها الباري سبحانه معدتين ، إحداهما تستعملها لجمع المواد الأولية التي تستخلصها من رحيق الأزهار ، أو تحمل بها الماء ، وتنقله إلى الخلية ، والمعدة الأخرى مخصصة للطعام الذي تهضمه وتتغذى به.

ومن عجب أن النحلة إذ تجمع في معدتها الأولى ما تجنيه من الرحيق، لا تكتفي بنقله ، ولكنها في أثناء حملها له وتوصيله للخلية تقوم بعملية أولية لتحويله إلى العسل ، وذلك بإفراز الخمائر اللازمة لتحقيق ذلك .

والنحلة تحتاج إلى غبار الطلع لأمور مختلفة في الخلية ، وقد زودها خالقها بتجويف خاص لخزن هذه الحبوب في الوجه الخارجي لساق الرجل الخلفية ، تسمى سلة الطلع ، وجعل لها على الوجه الداخلي لرسغ الرجل الخلفية ما يشبه الفرشاة تستعملها الشغالة في تمشيط غبار الطلع وتكتيله تمهيداً لجمعه في سلة الطلع .

ومن العجائب المذهلة التي اكتشفها العلماء في النحلة ، تلك الغدة التي في مؤخرة البطن ، وقد سماها العلماء (غدة ناسانوف) ، وهذه الغدة تفرز رائحة خاصة ، ومن العجيب أن نحل كل خلية يتعارف على رائحة تميز نحلها عن غيره ، وتستطيع النحلة أن تعود إلى بيتها من مكان بعيد تهديها تلك الرائحة المميزة عن رائحة غيرها من النحل ، وبوابو الخلية وحراسها يعرفون النحلة التي تتبع الخلية عن طريق تلك الرائحة المميزة المنبعثة من النحلة.

والعجب أن النحل قادر على التعارف على رائحة جديدة عندما يحصل ما يستدعي ذلك ، فمثلاً عندما تخرج طائفة من النحل لتشكل خلية جديدة ، فإن الخلية الجديدة تتعارف على رائحة جديدة ، وعندما مزج العلماء بطريقة علمية طائفة من النحل مع طائفة أخرى وجدوا أن النحل بعد دمجه تعارف

على رائحة واحدة جديدة تميزه عن غيره .

ومن عجائب هداية النحل أنه يبني جدران البيوت السداسية من الشمع الخالص الذي لا ينفذ منه الهواء ، ولكنه عندما يغلق أبواب البيوت التي تحوي يرقات النحل يخلط الشمع بحبوب اللقاح ، وبهذا يتسرب الهواء من خلال حبوب اللقاح ، فتبقى اليرقات حيّة ، ولو لم يهدها ربها إلى ذلك لماتت اليرقات ، وزال النحل من فوق ظهر البسيطة .

وقد حدثنا ربنا فيما حدثنا عنه من آياته الباهرة التي تستدعي التأمل والتفكر إلى هدايته العجيبة للنحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وقد اهتدى المسلمون للمنافع العظيمة التي في العسل ، ولكن الضالون عن هدى الله لم يكتشفوا ما فيه من المنافع إلا في هذه الأيام ، وقد اكتشف الباحثون حقائق مذهلة ، فوجدوا أن العسل غذاء ودواء ، وهو غذاء من نوع راق ، يحوي على خصائص لا تكاد توجد في غيره، ووجدوا أنه علاج يكاد يصلح لجميع أنواع الأمراض ، ولا يزال العلم يكتشف في كل يوم في العسل نفعاً جديداً .

---

(١) سورة النحل: ٦٨ ـ ٦٩ .

كيف يدل النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء ؟

مما لاحظه العلماء المعاصرون الطريقة التي يدل بها النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء ، يقول الدكتور يوسف عز الدين: « لو اكتشف أحد عمال النحل حقلاً أو كمية من النباتات تعتبر مصدراً للغذاء ، فإنّه يعود للمستعمرة ليخبر باقي العمال عن هذا الكنز الذي اكتشفه ، وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدري لماذا تفعل هذا .

إنها ترقص رقصات غريبة ذات مدلولات معينة ، إذ إن جسمها يصنع في أثناء الرقص زاوية تدل على زاوية الشمس ، وإذا كان الحقل الذي اكتشفه قريباً من المستعمرة فإنَّ الرقصة في هذه الحالة تختلف عنها في حالة بعد الحقل مسافة أطول .

ومن هذه الرقصات يفهم النحل أنَّ حقلاً من البرسيم أو غيره من النباتات ذات الأزهار التي يحضر النحل غذاءه منها ، يقع على بعد معين، والطريق إليه يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشمس .

فيؤدي بعض العمال الرقصة نفسها ، عند ذلك تطمئن النحلة التي اكتشفت الحقل إلى أنَّ باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله ، فيطير باقي الأفراد ، ويصلون مباشرة إلى ذلك الحقل لإحضار مزيد من الغذاء.

إنَّ النحلة المكتشفة قد نقلت إلى النحل الذي في المستعمرة عدداً من المعلومات برقصتها ، ولو حاولنا نحن البشر أن نتوصل إلى ما توصل إليه النحل من فهم لهذه الطلاسم عن طريق رسم بياني لاستغرق منا وقتاً لا يقل عن ثلث ساعة إن كان لدينا إلمام كاف بالعلوم الرياضية ، ولكن النحل يفهم كلَّ ذلك في الحال ، ويطير نحو الحقل في خط مستقيم ليحضر ما يلزمه من غذاء .

شيء مذهل لا يمكن تفسيره إلا إذا آمنا بوجود نفحة إلهية أودعها خالق الكون في هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك قدراً من العقل أو قدرة على التفكير تمكنها من القيام بما يلزمها » .

رؤية النحل ما لا نراه من الألوان

ويذكر لنا الدكتور يوسف أن من عجائب النحل رؤيته « لوناً لا نراه نحن البشر ، ولا يمكن أن نتصوره ، وهو اللون فوق البنفسجي الذي نراه نحن أسود ، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية » ، ثم يبين لنا الحكمة من وراء رؤية النحل لذلك اللون فيقول: « والحكمة في ذلك هي أن تلك الأشعة هي الوحيدة القادرة على اختراق السحاب .

والنحل قد يعيش في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة ، ورؤية الشمس ضرورية لمعرفة مكان الحقول التي بها الغذاء ، وهنا تكمن الحكمة في رؤية النحل لذلك اللون فوق البنفسجي ، فإنها بذلك يصبح في إمكانها رؤية الشمس من خلال السحب ، فلا يموت النحل جوعاً في حالة اختفاء الشمس خلف الغمام ، حقيقة مذهلة تدلُّ على وجود خالق مدبر ومقدر يعلم ما يصنع ، إذ إن القدرة على رؤية ذلك اللون لا يمكن أن تكون قد اكتسبها النحل مع مرور الزمن ، بل لا بد أن تكون قد وجدت منذ أول لحظة خلق الله فيها النحل ، إذ لو لم توجد من أول الأمر، لانقرض النحل في تلك المناطق منذ أمد بعيد » .

٤ـ هداية النمل وعجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم عن نوع آخر من مخلوقات الله ، ويبين لنا هداية الله لها في معاشها فيقول:

«وهذا النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها ، وإن بعدت عليها الطريق ، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها ، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان.

فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين ؛ لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة ، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوماً ذا شمس فخرجت به ، فنشرته على أبواب بيوتها ،

ثم أعادته إليها ، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله ـ سبحانه ـ في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1] ، فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ، ثم أتت بالاسم المبهم ، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم ، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر ، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول ، وهو خشية أن يصيبهم معرّة الجيش ، فيحطمهم سليمان وجنوده ، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك ، وهذا من أعجب الهداية .

وتأمل كيف عظم الله - سبحانه - شأن النمل بقوله: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[2]، ثم قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾[3]، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروفٌ بالنمل كوادي السباع ونحوه ، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم ، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾[4]، فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[5] فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبدالله بن عبدالله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ « نَهَى عن قتْلِ النمل والنحلة والهدهد والصرد »[6]، وفي

---

(١) سورة النمل: ١٨ .
(٢) سورة النمل: ١٧ .
(٣) سورة النمل: ١٨ .
(٤) سورة النمل: ١٨ .
(٥) سورة النمل: ١٨ .
(٦) عزاه المجد ابن تيمية في المنتقى ص: ٧٥٩ إلى أحمد وأبي داود وابن ماجة بلفظ: نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع: « النملة ، والنحلة ، والهدهد ، والصرد » .

الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج ، وأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه: أنْ قرصتْك نملة أحرقت أمة من الأمم تُسبحُ! فهلا نملة واحدة !) [1].

وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير ، قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة .

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه ، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه ، قال: (خَرج نَبيٌ من الأنبياء بالناس يَسْتَسْقُون ، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مُستلقية على ظهرها ، فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم) ولِهذا الأثر عدة طرق ، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره .

وفي مسند الإمام أحمد: (أن سليمان بن داود خرج يستسقي ، فرأى نملة مُستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقولُ: اللهم إنا خلق من خلقك ، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك ، فإما أن تُسقينا وترزقنا ، وإما أن تهلكنا ، فقال ارجعوا فقد سُقيتُمْ بدعوة غَيركم).

ولقد حُدّثت أن نملة خرجت من بيتها ، فصادفت شق جرادة ، فحاولت أن تحمله فلم تطق ، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعتُ ذلك من الأرض ، فطافت في مكانه فلم تجده ، فانصرفوا وتركوها.

قال: فوضعته ، فعادت تحاول حمله فلم تقدر ، فذهبت ، وجاءت بهم، فرفعته ، فطافت فلم تجده فانصرفوا ، قال: فعلت ذلك مراراً ، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها ، وقطعوها عضواً عضواً ، قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذا النمل فطرها الله ـ سبحانه ـ على قبح الكذب وعقوبة الكذاب .

والنمل من أحرص الحيوان ، ويضرب بحرصه المثل ، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ١٥٤ ، ورقمه: ٣٠١٩ ، وانظر: ٦/ ٣٥٦ ، ورقمه: ٣٣١٨ ، ورواه مسلم: ٤/ ١٧٥٩ ، ورقمه: ٢٢٤١، والحديث مأخوذ من مجموع الروايات الواردة فيه .

استحضر نملة ، وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة ؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة ، فأمر بإلقائها في قارورة ، وسد فم القارورة ، وجعل معها ثلاث حبات حنطة ، وتركها سنة بعد ما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة ، فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك ؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات .

فقالت: نعم ، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح بني جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة ، فاقتصرت على نصف القوت ، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي ، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية .

ومن حرصها أنها تكدّ طول الصيف ، وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء ، وتَعَذُّرِ الكسب فيه ، وهي على ضعفها شديدة القوى ، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها ، وتجره إلى بيتها .

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائدا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه ، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيراً ، ويملأه ماء ، ثم يضع فيه ذلك الشيء ، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط ، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء ، فتلقي نفسها عليه ، وجربنا نحن ذلك .

وأحمى صانع مرة طوقاً بالنار ورماه على الأرض ليبرد . واتفق أن اشتمل الطوق على نمل ، فتوجه في الجهات ليخرج ، فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق ، وكان ذلك مركزاً له ، وهو أبعد مكان من المحيط »[1] .

---

(١) شفاء العليل ، لابن القيم: ص١٠٤ .

النمل الأبيض غذاؤه ومساكنه:

يحدثنا الأستاذ يوسف عز الدين: عما كشف العلم من أسرار هذا الكائن: « ومن الغرائز التي وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة ما هو مذهل ، يجعل كل ذي عقل من البشر يخرّ ساجداً للخالق العظيم .

على سبيل المثال ما نراه في مستعمرة نوع من الحشرات نطلق عليه اسم (النمل الأبيض) ، تعيش هذه الحشرات أيضاً في مستعمرات ، إذا زاد أفراد المستعمرة عن الحد المعقول بالنسبة لكمية الغذاء المتاحة ، فإنَّ هذه الحشرات تدرك هذه الحقيقة عن طريق الغريزة ، فتبدأ الأفراد في التهام عدد كبير من البيض ، وبذلك يسهم في حلّ مشكلة زيادة أفراد المستعمرة ومشكلة الغذاء، إذ أن التهام البيض يعتبر تغذية ، وفي الوقت نفسه يقلل من عدد الذرية .

إنّ هذه الحشرات لا تدرك لماذا تفعل ذلك ، ولكنَّها النفحة الإلهية التي تلهمها لعمل ما لا يمكن أن تدركه من الأشياء التي تعود عليها بالفائدة وتجنبها الفناء .

هذه الحشرات نفسها تتغذى على الأخشاب وتلتهمها بشراهة ، إذ في بعض الأماكن الموبوءة بها قد يتناول أفراد الأسرة طعامهم على منضدة الطعام، ثم يذهبون في الصباح لتناول إفطارهم ، فيجدون تلك المنضدة قد تقوضت أركانها ، وانهارت في خلال ليلة واحدة .

وفي بعض جهات استراليا الموبوءة بتلك الحشرات المدمرة قد يسأل أحد السائحين وهو ناظر من نافذة القطار عن اسم القرية التي رآها على مدى البصر ، فيعتريه الذهول عندما يخبرونه أن تلك القرية لا تضم آدميين ، ولكنها المساكن التي أقامها النمل الأبيض ليعيش بها .

هذه المساكن ترتفع عن سطح الأرض عدة أمتار وتصنعها الحشرات من مادة غريبة، هي خليط من لعابها وبعض المواد الأخرى ، وهي أقوى من الإسمنت المسلح ، ولا يمكن أن تخترقها الحشرات أو يتسرب إليها الماء من خلال جدرانها، وبداخلها أنفاق متشعبة يعيش فيها النمل الأبيض .

وتستخدم هذه الحشرات للتخابر عن بعد نوعاً من الشيفرة تشبه شيفرة التلغراف ، إذ تدق على جدران النفق برأسها عدة دقات فيفهم باقي النمل ما تريد عن طريق تلك الدقات الشفرية ، تفعل ذلك دون أن تدري ماذا تفعل، إذ إنها تفعلها عن طريق الإلهام الإلهي المسمى الغريزة .

ولقد احتار العلماء فترة طويلة من الزمن في تفسير إمكان حياة مثل هذه الحشرات عن طريق الغذاء على الأخشاب ، والخشب لا يحتوي على أية مواد عضوية قابلة للهضم ، وأخيراً اكتشفوا السر .

لقد وجدوا في داخل الجهاز الهضمي لأفراد هذه الحشرات حيوانات دقيقة أولية يتكون جسمها من خلية واحدة ، وهذه الحيوانات الأولية تفرز أجسامها افرازات تحول الخشب إلى مواد غذائية قابلة للهضم هي التي تغذي النمل الأبيض .

ومن العجيب أنّه لم يحدث إطلاقاً أن اكتشفت نملة بيضاء واحدة تخلو أمعاؤها من هذه الحيوانات الأولية ، ولو لم توجد هذه الحيوانات داخل أمعاء النمل الأبيض منذ بدء خلقها لما أمكنها الحياة ، ولانقرضت منذ أول جيل من أجيالها ، هل من الممكن أن يحدث هذا عن طريق المصادفة أم هو شيء مقدر مدبر مرسوم ؟ »

النمل يربي المواشي ويفلح الأرض:

ومن عجائب النمل ما ذكره الدكتور يوسف عز الدين ، فقد ذكر أن النمل استأنس مئات من الأجناس من الحيوانات الأدنى منه شأناً ، بينما لم يستأنس الإنسان سوى نحو عشرين من الحيوانات الوحشية التي سخرها لمنفعته ومتعته ، ولقد عرف النمل الزرع والرعي عن طريق الغريزة .

إنَّ حشرات المن التي يطلق عليها أحياناً اسم (قمل النبات) التي نراها على أوراق بعض النبات يرعاها النمل ليستفيد منها . ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا المن، فإذا جاؤوا به وضعوه في مستعمراتهم حيث يضعون بيضهم ، ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم ، فإذا فقس بيض المن وخرجت منه الصغار أطعموها وأكرموها ، وبعد فترة قصيرة يأخذ المن يدر سائلاً حلواً كالعسل كما تدر البقرة اللبن ، ويتولى النمل حلب هذا المن للحصول على هذا السائل وكأنها أبقار .

ولا يعتني النمل بتربية « المواشي » هذه وحدها ، بل يعتني كذلك بالزرع وفلاحة الأرض ، لقد شاهد أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض قد نما بها أرز قصير من نوع نصف بري ، كانت مساحة القطعة خمسة أقدام طولاً في ثلاثة عرضاً ، وكان طول الأرز نحو ستة «سنتيمترات» ، ويتراءى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أنَّ أحداً لا بد يعتني بها ، فالطينة حول الجذور كانت مشققة ، والأعشاب الغريبة كانت مستأصلة ، والغريب أنَّه لم يكن على مقربة من هذا المكان عود آخر من الأرز ، فهذا الأرز لم ينم من تلقاء نفسه ، وإنَّما زرعه زارع .

ولوحظ أن طوائف النمل تأتي إلى هذا المزروع وتذهب عنه ، فانبطح العالم على الأرض يلاحظ ما يصنعه، ولم يلبث أن عرف أنَّ هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز في تلك البقعة من الأرض ، وأنه اتخذ من زراعتها مهنة له ، تشغل كل وقته ، فبعضه كان يشق الأرض ويحرثها، والبعض الآخر كان يزيل الأعشاب الضارة ، فإذا ظهر عود من عشب غريب قام إليه بعض النمل، فيقضمونه ، ثم يحملونه بعيداً عن المزرعة.

نما الأرز حتى بلغ طوله ستين سنتيمتراً ، وكانت حبوب الأرز قد

نضجت، فلما بدأ موسم الحصاد شاهد صفاً من شغالة النمل لا ينقطع متجهاً نحو العيدان ، فيتسلقها إلى أن يصل إلى حبوب الأرز ، فتنزع كل شغالة من النمل حبة من تلك الحبوب ، وتهبط بها سريعاً إلى الأرض، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض .

بل الأعجب من ذلك أنَّ طائفة من النَّمل كانت تتسلق الأعواد ، فتلتقط الحب ، ثم تلقي به ، بينما طائفة أخرى تتلقاه ، وتذهب به إلى المخازن..

ويعيش هذا النوع من النمل عيشة مدنية في بيوت كبيوتنا ذات شقق وطبقات ، أجزاء منها تحت الأرض ، وأجزاء فوق الأرض ، في هذه المدن نجد الخدم والعبيد .

بل الأعجب من ذلك نجد الممرضات اللاتي تعنى بالمرضى ليلاً ونهاراً، ونجد منها من يرفع جثث من يموت من النمل ...

يفعل ذلك النوع من النمل كلَّ هذا بدون تفكير ، إذ يتم بالغريزة التي أودعها الله في أجسامهم الصغيرة .

٥ـ هداية الهدهد وعجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم بأسلوبه السهل الأخاذ عن نوع آخر من مخلوقات الله التي لها في كتاب الله ذِكْر ، ألا وهو الهدهد ، متحدثاً عن هداية الله له فيقول:

« وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره ، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان، وقد فقده وتوعده ، فلما جاءه بَدَره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة ، وخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[1] ، وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[2] ، والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى

(١) سورة النمل: ٢٢.
(٢) سورة النمل: ٢٢.

معرفته ، ثم وصفه بأنه نبأ يقين ، لا شك فيه ولا ريب ، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر ، وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته ، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج .

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد، فقال: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾[1]، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجلّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك ، ثم زاد في عظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم ، ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم ، وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2]!

وحذف أداة العطف من هذه الجملة ، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها ، إيذاناً بأنها هي المقصودة ، وما قبلها توطئة لها ، ثم أخبر عن المغوي لهم ، الحامل لهم على ذلك ، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم ، حتى صدهم عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده ، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله ـ سبحانه ـ إخراج الخبء في السموات والأرض ، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض ، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض .

قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض ، وذلك بإلهام مَنْ يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه ، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله » .

---

(١) سورة النمل: ٢٣.
(٢) سورة النمل: ٢٤ .

٦ـ هداية الحمام وعجائب صنع الله فيه

أما حديث ابن القيم عن الحمام وبدائع صنع الله فيه ، وعجيب هدايته إلى ما هداه إليه فحديث طويل ممتع، يدل على أن التفكير في خلق الله منهج أخذ به أهل العلم أنفسهم تحقيقاً لأمر الله لعباده ، وفي هذا يقول ابن القيم:

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية ، حتى قال الشافعي: أعقل الطير الحمام ، وبُردُ الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب ،وربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد ، فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره ؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها ، وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول .

والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيماً ، فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السفاد ، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها ، والإناث عن ذكورها ، ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها ، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها ، ولا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكراً من عرض الحمام فتعتريها الهجنة ، والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها .

والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حماماً ساقطاً لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها ، ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة ، وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له .

ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها ، ويقولون: هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه ، وهو أشد متناً ، وأقوى بدناً وأحسن اهتداء ، وطائفة منهم يختار لذلك الإناث ، ويقولون: الذكر إذا سافر وبعد عهده حنَّ إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن ، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها ، فيترك السير ، ومال إلى قضاء وطره منها .

وهدايته على قدر التعليم والتوطين ، والحمام موصوف باليُمْن والإلف

للناس ، ويحب الناس ويحبونه ، ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه ، وإن أساء إليه ، ويعود إليه من مسافات بعيدة ، وربما صد فترك وطنه عشر حجج ، وهو ثابت على الوفاء ، حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه .

والحمام إذا أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف ، وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد يقوم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان ، فيعملان منه أفحوصة، وينسجانها نسجاً متداخلاً في الوضع الذي يكون بقدر حيمان الحمامة ، ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة ، لئلا يتدحرج عنها البيض، ويكون حصناً للحاضن ، ثم يتعاودان ذلك المكان ، ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه ، ويطيبانه وينفيان طباعه الأول ، ويحدثان فيه طبعاً آخر مشتقاً ومستخرجاً من طباع أبدانهما ورائحتهما ، لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام ، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة .

ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان ، ووضعت فيه البيض، فإن أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تُسقط من الفزع .

فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحضن ، حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه انصدع عن الفراخ ، فأعاناه على خروجه، فيبدآن أولاً بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حوصلته ، علماً بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء ، فتتسع الحوصلة بعد التحامها ، وتنفتق بعد ارتتاقها .

ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئاً فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء، وفيه قوى الطعم.

ثم يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء، وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية، لتكون لها بعض المتانة، فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو، ويزقانه الفرخ، ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد.

ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ، وهو يطلب

ذلك منهما ، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللقط ويعتاده ، وإذا علما أن رئته قد قويت ونمت ، وأنهما إن فطماه فطماً تاماً قوي على اللقط وتبلغ لنفسه ضرباه إذا سالهما الزق، ومنعاه.

ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما، وينسيان ذلك التعطف المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بالتكسب بنفسه، ثم يبتدآن ابتداء ذلك النظام.

ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس ؛ لئلا يعرض لها من يصدها ، ولا يرد مياههم، بل يرد المياه التي لا يردها الناس .

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ ، فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، وجلب القوت والزق على الذكر، فإنَّ الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم، والأم هي التي تحبل وتلد وترضع.

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ: أن رجلاً كان له زوج حمام مقصوص، وزوج طيار ، وللطيار فرخان ، قال: ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما ، قال: فحبسني السلطان فجأة، فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام ، ولم أشك في موتهما ؛ لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة ، وليس عندهما ما يأكلان ويشربان .

قال: فلما خلي سبيلي ، لم يكن لي هم غيرهما ، ففتحت البيت فوجدت الفراخ قد كبرت ، ووجدت المقصوص على أحسن حال ، فعجبت، فلم ألبث أن جاء الزوج الطيار ، فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهما .

فانظر إلى هذه الهداية ، فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفراخ ، للأبوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش ، فعلا كفعل الفرخين ، فأدركتهما رحمة الطيارين ، فزقاهما كما يزقان فرخيهما .

ومن هدايتها أيضاً أنه إذا رأى الناس في الهواء عرف أي صنف يريده، وأي نوع من الأنواع ضده ، فيخالف فعله ليسلم منه ، ومن هدايته أنه في

أول نهوضه يغفل ، ويمر بين النسر والعقاب ، وبين الرخم والبازي ، وبين الغراب والصقر ، فيعرف من يقصده ، ومن لا يقصده ، وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع ، وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب ، والحمار عند مشاهدة الأسد .

مزيد من عجائب هداية الله مخلوقاته

ويعرض علينا ابن القيم جملة من عجائب هداية الله في مخلوقاته مما توصل إليه أهل العلم في زمانه، ولاحظوه من الوقائع في عهدهم فمن ذلك:

٧ـ كلبة ترضع طفلاً مات أهله

قال الجاحظ: لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار ، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق منهم أحد ، فعمدوا إلى باب الدار فسدوه ، وكان قد بقي صبي صغير يرضع ، ولم يفطنوا له ، فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم ، ففتح الباب ، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار فراعه ذلك ، فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار ، فلما رآها الصبي حبا إليها ، فأمكنته من أطبائها ، فمصها ، وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه ورأى جراء الكلبة يرتضعون من أطباء الكلبة حبا إليها ، فعطفت عليه ، فلما سقته مرة أدامت له ذلك ، وأدام هو الطلب .

٨ ـ المكاء يقتل الأفعى

وذكر ابن الاعرابي قال: أكلت حية بيض مكاء ، فجعل المكاء يصوت ويطير على رأسها ، ويدنو منها ، حتى إذا فتحت فاها وهمت به ألقى حسكة ، فأخذت بحلقها حتى ماتت ، وأنشد أبو عمر الشيباني في ذلك قول الأسدي:

إن كنت أبصرتني عيلاً ومصطلماً ... فربما قتل المكاء ثعباناً

٩ـ هداية الثعلب وحيله

ومن عجيب هداية الثعلب أنه إذا امتلأ من البراغيث أخذ صوفة بفمه، ثم عمد إلى ماء رقيق ، فنزل فيه قليلاً ، حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة ، فيلقيها في الماء ويخرج .

ومن عجيب أمره أن ذئباً أكل أولاده ، وكان للذئب أولاد وهناك زبية ، فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها، وحفر فيها سرداباً يخرج منه ، ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم ، وجلس ناحية ينتظر الذئب ، فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قدامه ، وهو يتبعه ، فألقى نفسه في الزبية، ثم خرج من السرداب ، فألقى الذئب نفسه وراءه فلم يجده ، ولم يطق الخروج ، فقتله أهل الناحية .

ومن عجيب أمره أن رجلاً كان معه دجاجتان، فاختفى له ، وخطف أحداهما وفر ، ثم أعمل فكره في أخذ الأخرى ، فتراءى لصاحبها من بعيد وفي فمه شيء شبيه بالطائر، وأطمعه في استعادتها بأن تركه وفر ، فظن الرجل أنها الدجاجة ، فأسرع نحوها ، وخالفه الثعلب إلى أختها ، فأخذها وذهب .

ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيها طير ، فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئاً فلم يطق ، فذهب وجاء بضغث من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير ففزع منه ، فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى أماكنها ، فعاد لذلك مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، حتى تواظب الطير على ذلك وألفته ، فعمد إلى جرزة أكبر من ذلك ، فدخل فيها وعبر إلى الطير ، فلم يشك الطير أنه من جنس ما قبله ، فلم تنفر منه، فوثب على طائر منها وعدا به .

ومن عجيب أمره أنه إذا اشتد به الجوع انتفخ ، ورمى بنفسه في الصحراء كأنّه جيفة ، فتتداوله الطير ، فلا يظهر حركة ولا نفساً ، فلا تشك أنه ميت ، حتى إذا نقر بمنقاره ، وثب عليها ، فضمها ضمة الموت .

ومن عجيب أمره أنه إذا أصاب القنفذ ، قلبَهُ لِظهره لأجل شوكه ، فيجتمع القنفذ حتى يصير كبه شوك ، فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه ، فإذا أصابه البول اعتراه الأسر ، فانبسط، فيسلخه الثعلب من بطنه ، ويأكل مسلوخه .

١٠ـ من عجائب الذئاب

ومن عجيب الذئب أنه عرض لإنسان يريد قتله ، فرأى معه قوساً وسهماً، فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه ، وأقبل نحو الرجل، فجعل الرجل كلما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم حتى أعجزه ، وعاين نفاد سهمه، فصادف من استعان به على طرد الذئب .

١١ـ من عجائب القرود

ومن عجيب أمر القرود ما ذكره البخاري في صحيحه ، عن عمرو ابن ميمون الأودي، قال: رأيت في الجاهلية قرداً وقردة زنيا ، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا ، فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم .

١٢ـ من عجائب البقر

وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل ، وقد أخبر النبي ﷺ (أنّ رجلاً بينما هو يسُوق بقرة إذ ركبها فقالت: لم أخلق لهذا) فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم ؟! فقال: (فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثم).

قال: (وبينما رجل يرعى غنماً له إذ عدا الذئبُ على شاة منها فاستنقذها منه ، فقال الذئب: هذه استنقذتها مني ، فمن لها يوم السبُع يوم لا راعي لها غيري) ، فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟! فقال رسول الله ﷺ (إني أومنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثمَّ) .

١٣ـ من عجائب الفئران

ومن عجيب أمر الفئران أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة فنقص وعزَّ عليها الوصول إليه ذهبت ، وحملت في أفواهها ماءً وصبته في الجرة ، حتى يرتفع الزيت فتشربه .

١٤ـ من عجائب الحيوان استخدامه الدواء

والأطباء تزعم أن الحقنة أخذت من طائر طويل المنقار ، إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح ، وأخذ بمنقاره منه واحتقن به ، فيخرج الذرق بسرعة .

وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكلا الأفاعي والحيات عمدا إلى الصتر النهري، فأكلاه كالترياق لذلك .

وهذا الثعلب إذا أصابه صدع أو جرح يأتي إلى صبغ معروف ، فيأخذ منه ، ويضعه على جرحه كالمرهم ، والدبُّ إذا أصابه جرح يأتي إلى نبت قد عرفه ، وجهله صاحب الحشائش ، فيتداوى به فيبرأ !

١٥ـ تعلم الإنسان من الحيوان

وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أموراً تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره ، وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] قال أبو جعفر الباقر: والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام، حتى جعلهم أضل سبيلاً منها، فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب به من الذر والنمل، لأنها تضعه كقطعة من لحم ، فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد.

وقال ابن الأعرابي: قيل لشيخ من قريش: مَنْ علمك هذا كله ، وإنما

---

(١) سورة الفرقان: ٤٤.

يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب ؟ قال: علمني الله ما علم الحمامة تقلب بيضها حتى تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من حضانتها ، والخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد .

وقيل لآخر: مَنْ علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: مَنْ علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط ، ثم تصعد ، ثم تسقط مراراً عديدة ، حتى تستمر صاعدة .

وقيل لآخر: مَنْ علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به ؟ قال: من علم الطير تغدو خماصاً كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها ، لا تسأم ذلك ، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: مَنْ علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته ؟ فقال: الذي علم السهر أن ترصد جحر الفأرة ، فلا تتحرك ولا تتلوى ، ولا تختلج كأنها ميتة ، حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد .

وقيل لآخر: مَنْ علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون ؟ قال: من علم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة ، والمشي والتعب وغلظة الجمّال وضربه، فالثقل والكل على ظهره، ومرارة الجوع والعطش في كبده ، وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه ، ولا يعدل به ذلك عن الصبر .

وقيل لآخر: مَنْ علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل ؟ قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض ، وهو يحتاج إليها فلا يأكلها ؛ بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلباً حثيثاً ، حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها، وهو مسرور بذلك طيب النفس به ، وإذا وضع له الحب الكثير فرّقه هنا وها هنا، وإن لم يكن هناك دجاج ، لأن طبعه قد ألف البذل والجود ، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام .

وقيل لآخر: مَنْ علمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله؟ قال: من علم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر .

ومَنْ علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب ، عفى أثر مشيته بِذَنَبِهَ ، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه، فينفخ في منخريه ، لأن اللبوة تضعه جروأ كالميت ، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك ! .

ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها ، وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع !

ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه، لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة ، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي ماء وسطاً تضعه فيه يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم .

ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر !

ومَنْ علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره ، والذكر من الأنثى ، فيقصد الذكر مع علمه بأنَّ عدوه أشد وأبعد وثبة ، ويدع الأنثى على نقصان عدوها ؛ لأنَّه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطاً أو شوطين حقن ببوله، وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن ، وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عدوه، فيدركه الكلب، وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج ، فيدوم عدوها ! .

ومَنْ علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف ، فيعلم أن تحته جحر الأرانب ، فينبشه ، ويصطادها علماً منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق !

ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوباً بين عينيه ، فينام بإحداهما ، حتى إذا نعست الأخرى نام بها ، وفتح النائمة ! حتى قال بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ومَنْ علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث ، فلا يبقى عصفور

بجوارها حتى يجيء ، فيطيرون حول الفرخ ، ويحركونه بأفعالهم ، ويحدثون له قوة وهمة وحركة ، حتى يطير معهم !

قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط ، فأومي بيدي كأني أرميه فلا يطير، وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً فلا يتحرك ، فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي.

ومن علم « اللبب » وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض ، ويجمع نفسه ، فيرى الذبابة أنه لاه عنها ، ثم يثب عليها وثوب الفهد!

ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة ، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلق به ، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها !

ومن علم الظبي أن لا يدخل كناسه إلا مستدبراً ، ليستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه !

ومن علم السنور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود ، ثم يشير إليها بالرجوع ، وإنما يريد أن يدهشها فتزلق فتسقط !

ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء ، ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة ، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً ، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء ، وخرج منه ، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت ، إذا ضل عنه !

ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن ، ثم يظهر!

ومن علم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى ، لأنَّ سلاحه قد ذهب ، فيسمن لذلك ، فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح ، وأكثر من الحركة ليشتد لحمه ، ويزول السمن المانع له من العدو .

وهذا باب واسع جداً، ويكفي فيه قوله - سبحانه - ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ

وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

وجه المماثلة بين الحيوانات وبني الإنسان:

قال ابن عباس في رواية عطاء: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾[2]، ويريد يعرفونني، ويوحدونني، ويسبحونني، ويحمدونني، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[3]، ومثل قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾[4].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾[5] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[6]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾[7]، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾[8]، وقوله: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾[9]، وقول سليمان ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾[10].

وقال مجاهد: أمم أمثالكم، أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال الزجاج: أمم أمثالكم في أنها تبعث.

وقال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في طلب الغذاء، وابتغاء الرزق، وتوقي المهالك.

---

(١) سورة الأنعام: ٣٨ـ ٣٩.
(٢) سورة الأنعام: ٣٨.
(٣) سورة الإسراء: ٤٤.
(٤) سورة النور: ٤١،
(٥) سورة الحج: ١٨.
(٦) سورة النحل: ٤٩.
(٧) سورة سبأ: ١٠.
(٨) سورة النحل: ٦٨.
(٩) سورة النمل: ١٨.
(١٠) سورة النمل: ١٦.

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد ، ومنهم من يعدو عدو الذئب ، ومنهم من ينبح نباح الكلب ، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس ، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام الطيب عافته ، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه ، فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها ، وإن أخطأ رجل ترواه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة ، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة، وعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق .

والله ـ سبحانه ـ قد جعل بعض الدواب كسوباً محتالاً ، وبعضها متوكلاً غير محتال ، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته ، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقاً مضموناً وأمراً مقطوعاً ، وبعضها لا يعرف ولده ألبتة ، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه ، وبعضها تضيع ولدها ، وتكفل ولد غيرها ، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها ، وبعضها يدخر ، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكور يعول ولده، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه .

وجعل بعض الحيوانات يتمها من قبل أمهاتها ، وبعضها يتمها من قبل آبائها ، وبعضها لا يلتمس الولد ، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه، وبعضها يعرف الإحسان ويشكره، وبعضها ليس ذلك عنده شيئاً ، وبعضها يؤثر على نفسه ، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحداً يدنو منه.

وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم ، وينفر غاية النفار ، وبعضها لا يأكل إلا الطيب ، وبعضها لا يأكل إلا الخبائث ، وبعضها يجمع بين الأمرين .

وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها ، وبعضها يؤذي من لا يؤذيها،

وبعضها حقود لا ينسى الإساءة ، وبعضها لا يذكرها ألبتة ، وبعضها لا يغضب ، وبعضها يشتد غضبه ، فلا يزال يسترضى حتى يرضى ، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس ، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك ألبتة ، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه ، وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده ، وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول ، وبعضها لا يقبل ذلك بحال .

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه ، وعلى إتقان صنعه ، وعجيب تدبيره ، ولطيف حكمته ، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف ، وغوامض الحيل ، وحسن التدبير ، والتأني لما تريده، ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته ، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثاً ، ولم يترك سدى ، وأن له ـ سبحانه ـ في كل مخلوق حكمة باهرة وآية ظاهرة وبرهاناً قاطعاً ، يدل على أنه رب كل شيء ومليكه ، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

١٦ـ هداية الخالق الكائنات لطريقة التكاثر

يقول الدكتور يوسف عز الدين موضحاً هذا الموضوع: « من الأشياء العجيبة التي تشترك فيها جميع الكائنات الحية القدرة على التكاثر ، لتكوين ذرية يكون من شأنها الاستمرار بالحياة، واستمرار بقاء النوع وعدم انقراضه.

وتتم عملية إنجاب الذرية في الكائنات الحيَّة المختلفة بطرق شتى ، ولكنَّها تصل إلى الهدف المنشود . (فالبكتريا) (وهي من النباتات) تتكاثر ، وكذلك تفعل باقي النباتات والحيوانات على اختلاف درجة رقيها . ولا يمكن من وجهة نظر العلوم الرياضية أن تحدث مصادفات يكون من شأنها إيجاد ذكر أو أنثى في آلاف من النباتات والحيوانات لهدف مرسوم ومحدد وهو إنجاب ذرية تبقى بعد الفناء .

ومن الحيوانات والنباتات ما لا يتميز فيها ذكر وأنثى ، ومع ذلك فإنَّها تتكاثر وتنجب ذرية ، فحيوان صغير الحجم أوّلي مثل حيوان (الأميبا) الذي

يعيش في الماء والمكّون جسمه من خلية واحدة يتكاثر بطريقة عجيبة ، إذ إنّ الحيوان الواحد ينقسم إلى قسمين ، وكل قسم يتحول إلى حيوان ، والحيوانات المتكونة من الانقسام تنقسم بدورها إلى حيوانين وهكذا . . . يحدث هذا عندما تكون ظروف الحياة ملائمة وعادية .

أمّا إذا شعر هذا الحيوان بما ينذر بالخطر فإنّه يتحوصل ؛ أي يفرز حول جسمه حوصلة ، وينقسم إلى حيوانين ، بل عشرات الحيوانات داخل الحوصلة ؛ لكي يعوض الوقت الذي قد يضيع هباء داخل الحوصلة إلى حين رجوع الظروف الملائمة لحياته .

ويحدث التكاثر عن طريق الانقسام في حيوانات أوليه عديدة غير (الأميبا) مثل الحيوان المسمى:(البراميسيوم) وهو يعيش في الماء، ويتكاثر أيضاً بالانقسام الثنائي في الظروف الملائمة كما تنقسم (الأميبا) ، ولكنه من آن لآخر يحتاج إلى تجديد نشاطه وحيويته فيلجأ إلى طريقة أخرى للتكاثر بالغة التعقيد يكون من شأنها تجنيد الأنوية (ولكل خلية نواة كما هو معلوم) حيث ينجب كل فرخ في هذه الحالة أربعة أفراد بدلاًمن انقسام حيوان إلى حيوانين فقط .

وفي الحيوانات الأرقى من هذه الحيوانات الأولية ، إذا كانت ظروف الحياة تحول دون سهولة التقاء الأنثى بالذكر لإنجاب الذرية ، فإنّ الحيوان في هذه الحالة يصبح أنثى وذكراً في الوقت نفسه ، أي يصبح خنثى حيث يضم جسمه أعضاء التناسل الأنثوية والذكرية جنباً إلى جنب ، فيستطيع بذلك أن ينجب ذريته دون حاجة إلى انتظار فرصة التقاء الجنسين، يحدث هذا مثلاً في الدودة الكبدية التي تعيش في القنوات المرارية لبعض الحيوانات حيث يصعب على أحد الجنسين التنقل والتجول في هذا المكان الضيق للعثور على الجنس الآخر، وفي الوقت نفسه إذا حدث أن التقى حيوانان من هذه الديدان من الممكن أن يلقح أحدهما الآخر حيث يصبح أحدهما وكأنه أنثى، ويصبح الآخر وكأنه ذكر .

إن حدوث ملايين المصادفات في آن واحد لهدف معين مشترك وفي حيوانات مختلفة وبوسائل متباينة شيء لا يقره العلم ، ولا تقره علوم

الرياضيات ، وفي هذه الحالة لا بدَّ أن يسلم بوجود قوة خالقة عاملة وراء هذا كله .

ومنذ وجود أول حيوان ثديي على هذه الأرض ، والأنثى مزودة بمصنع لإنتاج اللبن ، وذلك لكي يضمن الصغير الحصول على غذائه بمجرد خروجه من بطن أمه ، ولو لم يوجد هذا الثدي الذي يبرز من جسم الأم منذ أول حيوان ثديي لما أتيحت فرصة النمو والبقاء على قيد الحياة لأول مولود ، أي إنها عملية مدبرة ومقدرة منذ البداية ، ولا تخضع للتجربة والخطأ ، إذ إنها لا تحتمل الخطأ مرة واحدة .

فهل يمكن أن يتصور أيُّ إنسان عاقل أن تزويد الأم بطعام الصغير المولود يأتي نتيجة مصادفة عمياء ؟ ولبن أنثى الحيوانات الثديية ـ علاوة على فائدته الغذائية ـ نجده مزوداً بمواد تحمل للمولود مناعة ضد الأمراض إلى أن يشب عن الطوق ، ويمكن جسمه من الدفاع عن نفسه . وجميع الجهود التي تضافرت لصنع الألبان اللازمة لتغذية الصغار فشلت في صنع الألبان التي تحمل نفس صفات اللبن الذي أمد الله به الأنثى ».

أهمية الغريزة الجنسية:

ويحدثنا الدكتور يوسف عن الغريزة الجنسية وأهميتها وعظيم أثرها فيقول: « ومن الأشياء التي حيرت العلماء كنه الغريزة الجنسية ، تلك الغريزة التي تجعل الذكر ينجذب إلى الأنثى، والأنثى تنجذب إلى الذكر.

والغريزة الجنسية هي أقوى الغرائز ؛ لأنها أهمها بالنسبة لبقاء النوع وعدم انقراضه ، والهدف الرئيسي لبقاء بعض الحيوانات هو إتمام الالتقاء الجنسي ، ثم يموت بعد ذلك .

فالطور الكامل للحشرات المسماة (ذباب مايو) ، لا يزيد عن بضعة أيام، وهي في طورها الكامل هذا لا تتغذى إذ لا توجد بها أجزاء للفم تصلح لتناول الطعام إطلاقاً ، وإنما وظيفتها الرئيسية في هذه الفترة القصيرة من العمر هي التقاء الذكر بالأنثى لإنجاب الذرية ، حيث تموت الأم بعد ذلك مباشرة بعد أن تكون أدَّت رسالتها وكذلك يموت الأب ».

١٧ـ هداية الخالق الحيوان تعويض ما يفقده من أجزاء جسمه

ويتعرض الدكتور يوسف في مقالاته في جريدة الأهرام عما زود الله به مخلوقاته من خاصية تعويض الحيوان عما يفقده من أجزاء جسده فيقول: «ومن الصفات الأخرى المذهلة التي نجدها في جميع الحيوانات والنباتات القدرة على تعويض الأجزاء المفقودة ، وتوجد بدرجات مختلفة في الكائنات الحية .

ففي حيوانات عديدة مثل ذلك الحيوان المسمى « الهيدرا » نجد شيئاً عجيباً يكتفي العلم بوصفه ، ولكنَّه لا يستطيع له تفسيراً ، هذا الحيوان يعيش في الماء ، وهو أنبوبي الشكل لا يزيد طوله عن بضعة مليمترات، ذو قاعدة مقفلة وفتحة أمامية تستخدم كفم لدخول الطعام ، وفي الوقت نفسه تستعمل كفتحة « است » تخرج منها الفضلات . وحول تلك الفتحة نجد عدداً من الزوائد المجوفة ، يتصل تجويفها بتجويف الجسم .

إذا قطعنا هذا الحيوان إلى نصفين ، نصف علوي ، ونصف سفلي ، فإننا نجد أنَّ بعض الخلايا في كل نصف تتكاثر بحيث تستكمل الأجزاء الناقصة، فتكون النتيجة تكوين حيوانين يشبهان الحيوان الأصلي ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، إذ إننا لو قطعنا ذلك الحيوان، إلى عدة أجزاء فإنَّ كل جزء ينمو ويعوض جميع الأجزاء المفقودة ، ويصبح حيواناً كامل التكوين .

ويتركب جدار الجسم لهذا الحيوان من طبقتين من الخلايا: طبقة خارجية وطبقة داخلية تحيط بالتجويف الداخلي للجسم ، وفي كل طبقة من الطبقتين توجد أنواع مختلفة من الخلايا لكل نوع منها وظيفة محددة، ومعظم خلايا الطبقة الخارجية وظيفتها الأساسية حماية جسم الحيوان ، أما الطبقة الداخلية فوظيفتها الرئيسة هضم الغذاء الذي يبتلعه الحيوان من خلال فتحة الفم .

ولو قلبنا ذلك الحيوان كما يقلب الجورب ، فإنَّ الخلايا التي كانت خارجية تصبح داخلية ، أي تحيط بتجويف الجسم ، بينما الخلايا التي كانت داخلية تصبح خارجية ، فماذا يحدث في هذه الحالة ؟ لقد وجد العلماء الذين أجروا هذه التجارب أن الخلايا التي أصبحت الآن خارجية تهاجر نحو الداخل ، بينما الخلايا التي أصبحت داخلية تهاجر نحو الخارج لكي يعود

تركيب الحيوان إلى ما كان عليه ، ولو لم يحدث ذلك لمات الحيوان ، إذ إن الخلايا التي تحيط بتجويف الجسم لا بدَّ أن تكون الخلايا الهاضمة ، لتتم عملية هضم المواد الغذائية التي في تجويف الجسم، بينما الخلايا الخارجية لا بدَّ أن تكون الخلايا الوقائية التي تحفظ الجسم وتقيه من التلف .

وإذا قطعنا دودة الأرض إلى جزئين ، فإنَّ كلَّ جزء ينمو ، ويعوض الجزء المفقود .

وفي حيوانات أخرى (كالجمبري ، أو الكابوريا) وغيرهما إذا فقدت إحدى الأرجل فإنَّ رجلاً جديدة تتكون بدلاً من المفقودة .

والبرص إذا استشعر خطراً أو أمسكه من ذنبه إنسان أو حيوان فإنه يفصل ذلك الذنب عن جسمه، وينجو من الخطر، وينمو له ذنب جديد.

ونحن إذا جرحنا أنفسنا في أثناء الحلاقة أو لأي سبب آخر ، فإن خلايا جديدة تتكون بدلاً من الخلايا التي أتلفها الجرح ، ولو لم يحدث ذلك لما أصبح في الإمكان إجراء أية عملية جراحية .

وإذا كسرت لنا عظمة فإنَّ خلايا جديدة تتكون ويلتئم الكسر .

لا يمكن أن يحدث هذا نتيجة للمصادفة ، بل لا بدَّ أن يكون نتيجة تدبير يتجه نحو هدف معين ، وهو المحافظة على حياة الفرد ، وتحكمه قوى كامنة في الحيوان لم يتوصل العلم إلى كنهها ، إنها قوى أودعها الله في الحيوان ، والحيوان لا يعلم عنها شيئاً ، ولا يدرك ماذا يفعل » .

١٨ـ اتفاق جميع الأحياء في التنفس وإن اختلفت طرائقه

ويعرض الدكتور يوسف في مقالاته القيمة لهذا الموضوع ، فيقول:

« إن عملية التنفس التي نجدها في جميع الكائنات الحية من أدناها إلى أرقاها عملية عجيبة ، وهي في جميع الحالات ليست سوى عملية أكسدة، أي اتحاد الأكسجين بالمواد الغذائية التي في خلايا الجسم ، ونتيجة لهذه الأكسدة تنطلق الطاقة اللازمة للكائن الحي التي لولاها لما استطاع القيام بأيّ نشاط من أنشطته المختلفة .

تتم هذه الأكسدة في الحيوانات المختلفة بطرق متباينة ، ولكن النتيجة في جميع الأحوال واحدة ، وهي انطلاق الطاقة ، وفي الوقت نفسه يتكون الماء (وثاني أوكسيد الكربون) نتيجة لهذه العملية ، ولذا فالمظهر الواضح لعملية التنفس هو أخذ (الأوكسجين) اللازم (لأكسدة) المواد الغذائية وبإخراج (ثاني أوكسيد الكربون) والماء الناتجين عن هذه العملية .

ففي حيوان بسيط (كالأميبا) حيث يتكون الجسم من خلية واحدة ، تتم عملية التنفس بطريقة غاية في البساطة ، إنَّ هذا الحيوان الذي يشبه قطعة دقيقة من (الجيلاتين) الرخو يعيش في الماء ، ويوجد بالماء المحيط به قدر من (الأوكسجين) المذاب ، هذا (الأوكسجين) الذائب في الماء ينفذ إلى جسم (الأميبا) حيث يؤكسد المواد الغذائية التي في جسمها ، فتنطلق الطاقة اللازمة لحركتها ونموها ، وغيرها من العمليات الضرورية للحياة .

ويتكون (ثاني أوكسيد الكربون) والماء نتيجة لعملية (الأكسدة) ، علاوة على انطلاق الطاقة .

وتتخلص (الأميبا) من الماء الزائد بطريقة تثير الدهشة ، حيث تتجمع قطيرات الماء حتى تتكون فجوة مليئة بالماء ، هذه الفجوة تتحرك نحو حافة جسم الحيوان ، ثم تنفجر ملقية بالماء خارج الجسم ، ثم تعود لتتكون من جديد . . . وهكذا .

أما ثاني (أوكسيد الكربون) فينفذ من داخل الجسم إلى الماء المحيط به .

وتحدث عملية التنفس في الحشرات عن طريق فتحات على جانبي الجسم توصل إلى شبكة من الأنابيب الدقيقة تتفرع داخل جسم الحشرة إلى أنابيب أصغر فأصغر ، حتى تصل في النهاية إلى جميع الخلايا تقريباً ، وبهذا التنظيم يدخل (الأوكسجين) من الفتحات الخارجية ، ويصل مباشرة إلى خلايا الجسم .

أمَّا في الإنسان وفي عديد من الحيوانات الأخرى فإنَّ (الأوكسجين) يصل إلى أنسجة الجسم عن طريق الخلايا الدموية الحمراء التي تسبح في الدم، ويوجد بداخل هذه الخلايا الدموية المادة المسماة (بالهيموجلوبين).

ومن الخواص العجيبة لهذه المادة سرعة اتحادها (بالأوكسجين ، وثاني أوكسيد الكربون) والقدرة على الانفصال عنهما بسهولة . فإذا وصلت هذه الخلايا الدموية إلى الرئتين ، فإنها تتحمل بالأوكسجين ، وتسير مع الدورة الدموية حتى تصل إلى الشعيرات الدموية الدقيقة التي في الأنسجة، فينفصل الأوكسجين عنها وينفذ إلى الأنسجة من خلال الجدران الرقيقة للشعيرات الدموية حيث يستخدم (لأكسدة) المواد الغذائية، وينفذ إليها من الأنسجة (ثاني أوكسيد الكربون) الناتج من عملية (الأكسدة) الذي تحمله إلى الرئتين حيث ينفصل عن (الهيموجلوبين) ، ويتخلص منه الجسم عن طريق الزفير، ثم يتحمل من جديد (بالأوكسجين)... وهكذا .

ويحدث التنفس بوسائل عديدة في الحيوانات المختلفة ، ولكن النتيجة في جميع الحالات واحدة ، وهي وصول (الأوكسجين) إلى خلايا الجسم ، والتخلص من (ثاني أوكسيد الكربون) .

وهذا يدل دلالة قاطعة على شيئين:

الأول: أنّ هذا التقدير الدقيق لا بد أن يكون من فعل خالق مدبر مقدر إذ إنَّه لا يمكن أن يحدث شيء بطرق مختلفة ، ليؤدي لنتيجة واحدة عن طريق المصادفة .

والشيء الثاني: أنَّ الخالق واحد أحد ، إذ إن أسلوب الخلق مبني على أساس واحد ، ويؤدي إلى نتيجة واحدة لا تتغير » .

١٩ـ حصول الأحياء على الغذاء بطرق مختلفة

ويحدثنا الدكتور يوسف عن هذا الموضوع فيقول: « وجميع الكائنات الحية نباتات وحيوانات لا بدَّ أن تتغذى ، وتتغذى النباتات بطريقة تختلف تمام الاختلاف عن طريقة تغذية الحيوانات ، فالنباتات ثابتة في مكانها ، لا يمكنها أن تتحرك لتحصل على غذائها كما يفعل الحيوان ، ولذا فهي تصنع غذاءها وهي مغروسة في مكانها مستخدمة في ذلك الطاقة الشمسية .

أمَّا الحيوان فيحصل على غذائه جاهزاً من مواد نباتية أو حيوانية ، والغذاء الذي يتناوله الحيوان لا بدَّ أن يهضم ليمتصه الجسم ويستفيد منه، وعمليات الهضم عمليات بالغة التعقيد من شأنها تحويل المواد المعقدة التركيب إلى مواد بسيطة التركيب يستطيع الجسم امتصاصها والإفادة منها.

والمواد الغذائية قد تكون دهنية أو بروتينية أو نشوية ... إلخ .

وكل نوع من الغذاء يقوم بهضمه أنزيم معين يؤثر في مادة بعينها ، ولا يؤثر في المواد الأخرى الموجودة معها جنباً إلى جنب ، فأنزيم يؤثر في المواد الدهنية ، ولا يؤثر في المواد البروتينية ، وآخر يؤثر في المواد البروتينية ، ولا يؤثر في المواد الدهنية .

فهل من الممكن أن يحدث كلّ ذلك نتيجة خبط عشواء أو مصادفة عمياء أو نتيجة تجارب عديدة تحتمل الخطأ والصواب ؟

إنَّ أيَّ عقل قادر على التفكير لا بد أن يدرك أن هذا من المستحيل ، كما ترفضه رفضاً باتاً نظرية الاحتمالات في العلوم الرياضية .

ففي حيوان (الأميبا) الدقيق الحجم المكون من خلية واحدة تتم عملية التغذية بطريقة غريبة ، إذ تمتد منه أذرع تلتف حول المادة الغذائية الموجودة حوله في الماء ، والتي قد تكون حيواناً ضئيل الحجم أو نباتاً وحيد الخلية أصغر حجماً من الأميبا ، والمواد الغذائية في هذه الحالة قد تكون متحركة إذا كانت حيواناً صغيراً ، وقد تكون ثابتة إذا كانت نباتاً أولياً وحيد الخلية كبعض الطحالب .

ومن العجيب أنَّ حيوان (الأميبا) البسيط التركيب الذي لا يوجد به مخ أو جهاز عصبي يستطيع التفرقة بين المواد الغذائية الثابتة والمواد الغذائية المتحركة، فإذا كان الغذاء حيواناً متحركاً ، فإنَّ أذرع (الأميبا) تمتدُّ في حذر بعيداً عن الحيوان لكي لا يهرب ، أما إذا كان الغذاء ثابتاً غير متحرك ، فإنَّ الأذرع تمتدُّ حوله ملاصقة له بلا احتياط أو احتراس، إن المادة الغذائية في هذه الحالة لن تستطيع الهرب ، فكيف يدرك هذه الأشياء حيوان ضئيل (كالأميبا) لا تكاد تراه العين إلا من خلال عدسات الميكروسكوب لا مخَّ له ولا أعصاب أو عيون أو أية أعضاء للإحساس ! .

فإذا أطبقت الأذرع على المادة الغذائية أصبحت في داخل الجسم محاطة بقطرة ماء ، عند ذلك يبدأ جسم (الأميبا) في إفراز أنزيم هاضم حامض ليقتل الفريسة التي التهمتها (الأميبا) إذا كانت لا تزال على قيد الحياة ، ثم تفرز (أنزيما قلوياً) ، ولذلك حكمة ، إذ إنّ أهم (الأنزيمات) وهو (الأنزيم) الذي يهضم المواد (البروتينية) لا يعمل إلا في وسط قلوي » .

٢٠ـ دوران الدم في جميع أجزاء أجسام الأحياء

ويحدثنا الدكتور يوسف عن الدورة الدموية قائلاً:

« والدورة الدموية في شعب وظائف الحيوانات المختلفة تتم بطرق عديدة ، كما يختلف تركيب القلب في المجموعات المختلفة للحيوانات ، ولكنها تؤدي إلى نتيجة واحدة ، وهي دوران الدم في جميع أجزاء الجسم .

وإذا تأملنا تركيب القلب والجهاز الدوري في الإنسان ، وفي عديد من الحيوانات ، وجدنا أنَّ القلب ـ ذلك العضو الرائع التصميم ـ يتكون من حجرات يُوصل بعضها للبعض الآخر فتحات ذات صمامات ، ووظيفة هذه الصمامات السماح للدم بالمرور في اتجاه واحد ، وتمنع رجوعه في الاتجاه المضاد .

ونجد مثل هذه الصمامات في الأوعية الدموية الكبرى للغرض نفسه .

وشبكة الأوعية الدموية بأوردتها وشرايينها وشعيراتها الدموية تصميم

مذهل، إنَّ الشرايين تتفرع إلى أنابيب أصغر فأصغر ، حتى تصبح شعيرات دموية رقيقة الجدران ، والحكمة من رقة جدران الشعيرات الدموية هي إمكان تبادل غازي (الأوكسجين) من (هيموجلوبين) الكرات الدموية الحمراء ، وينفذ إلى أنسجة الجسم ، وفي الوقت نفسه ينفذ (ثاني أوكسيد الكربون) من الأنسجة إلى الشعيرات الدموية ، فتلتقطه الكرات الحمراء ، ثم تتجمع الشعيرات الدموية لتكوين أوردة تحمل الدم إلى الرئتين ، حيث تتخلص الكرات الدموية من (ثاني أوكسيد الكربون) ، وتلتقط (أوكسجيناً) جديداً وهكذا .

والقلب ينبض نبضات إيقاعية مدى الحياة ، حيث تتمدد بعض حجراته وتنقبض حجرات أخرى دافعاً الدم النقي الحامل (للأوكسجين) في الأوعية الدموية ، ومستقبلاً له بعد دورانه في الجسم محملاً (بثاني أوكسيد الكربون)، ليرسله إلى الرئتين حيث يتحمل (الأوكسجين) ، ويتخلص من (ثاني أوكسيد الكربون) .

ويتجول داخل جسم الإنسان ، وعديد من الحيوانات الأخرى سوائل ذات وظائف محددة مثل الدم (واللمف) . و(اللمف) وسيط بين الدم والأنسجة . وللدم وظائف عديدة ، منها توصيل المواد الغذائية إلى جميع أجزاء الجسم ، وإذا لم يوجد الدم في أجسام بعض الحيوانات كالدودة الكبدية مثلاً ، فإنَّ تركيب الجسم في مثل هذه الحيوانات نجده مصمماً بحيث تتم عملية نقل الأغذية وغيرها بوسائل أخرى .

ويتكون الدم في أجسامنا وأجسام عديد من الحيوانات الأخرى ، من سائل يسبح فيه عدد هائل من الخلايا المختلفة الأشكال والوظائف نطلق عليها أحياناً اسم الكرات الدموية الحمراء ، والكرات الدموية البيضاء .

والكرات الحمراء ـ كما ذكرت ـ ذات وظيفة تنفسية ، أما الكرات البيضاء فمتعددة الأشكال والوظائف ، بعضها ملتهم ، وظيفته التهام أي جرثومة تتسرب إلى جسم الإنسان أو الحيوان ، فتلتهمها بطريقة تشبه التهام الأميبا لغذائها ، ونحن نستنشق من الهواء ملايين الجراثيم طول النهار والليل ،

ولكنّنا لا نمرض كلّ يوم ، لأنَّ هذه الخلايا العجيبة السابحة في الدم ، والتي من الممكن أن تخترق تيار الدم وتنفذ إلى الأنسجة في حالة الطوارئ تلتهم هذه الجراثيم وتقضي عليها ، ولا يعترينا المرض إلا إذا ضعفت مقاومة الجسم لأيٍّ سبب من الأسباب ، أي إذا ازداد عدد الجراثيم عن الحدِّ المألوف».

٢١ـ تركيب الحواس في الأحياء

ويبين لنا الدكتور يوسف أن « لمعظم الحيوانات أعضاء للحس كحاسة الأبصار والشم واللمس والسمع ، والتركيب الأساسي للعين يتشابه في جميع الثدييات وغيرها ، وهو تركيب مذهل وشديد التعقيد ، فللعين عدسة تستقبل الضوء ، وفتحة ينفذ الضوء من خلالها ؛ ليخترق العدسة، وتلك الفتحة التي ينفذ منها الضوء في العين تتسع تلقائياً في الضوء الخافت ، وتضيق تلقائياً إذا كان الضوء شديداً ، والحكمة من ذلك واضحة ، ففي حالة الضوء الخافت تحتاج عملية الإبصار إلى كمية كبيرة من الضوء ، أمَّا في حالة الضوء الشديد فتكفي كمية قليلة منه لكي تتضح الأشياء المرئية .

والعين ترى الأشياء في ضوء خافت ، ولم يتمكن عقل الإنسان من اختراع آلة تصوير يمكنها التقاط صور المرئيات في مثل هذا الضوء .

وكما أنَّ النحل قادر على رؤية الأشعة فوق البنفسجية ، فإنّ البومة في إمكانها رؤية الأشعة تحت الحمراء التي لا نراها ، وهي أشعة حرارية ، ولذا فالبومة تستطيع أن تبصر الفأر في الظلام الدامس عن طريق الأشعة الحرارية تحت الحمراء التي تشع من جسده الدافئ .

وينفذ شعاع الضوء من العدسة ليقع على الشبكية عند قاع العين ، وتتكون الشبكية من تسع طبقات مختلفة ، ولا تزيد في مجموعها عن سمك ورقة رقيقة ، والطبقة التي في أقصي قاع العين تتكون من ملايين من الأعواد والمخروطات منتظمة في تناسب محكم يمكنها أن تميز الألوان. ويتولى العصب البصري نقل هذا الإحساس إلى مركز معين في المخ يترجم الإحساس إلى

صورة مرئية تبصرها العين بوضوح .

وتلك التنظيمات العجيبة للعدسات والأعواد والمخروطات والأعصاب لا بدَّ أن تكون قد حدثت في وقت واحد .. إذ إنه إذا لم توجد جميعها معاً في وقت واحد فإنَّ الإبصار يصبح مستحيلاً ، فكيف استطاعت جميع هذه العوامل أن يُكمِّل بعضُها بعضاً في وقت واحد ؟

إن العلوم الرياضية تقول لنا: إن حدوث هذه الأشياء دفعة واحدة عن طريق المصادفة أمر مستحيل ، إن آلة التصوير التلفزيونية ما هي إلا محاكاة بدائية لعملية الإبصار التي تتم عن طريق العين ، بل كل ما ابتكره الذهن البشري من اختراعات ما هو سوى محاكاة بدائية لما هو موجود في الخلق ، وإذا كانت آلة التصوير البسيطة يلزمها فكر وعقل لابتكارها، فهل من المعقول أن تكون العين في الإنسان وغيره من الحيوانات تكونت عن طريق المصادفة ؟

ومن العجيب أنَّ كلّ من هو في حاجة إلى الإبصار من الحيوانات خلق الله له عيوناً يرى بها، ولو أنّ تلك العيون قد تختلف في تركيبها عن عيوننا اختلافاً كبيراً ، ولكنَّها توصل إلى الهدف نفسه وهو الإبصار، فنجد في دودة الأرض مثلاً خلايا في جلدها ذات حساسية للنور والظلام، وهذا هو كلّ ما تحتاج إليه مثل هذه الدودة التي تعيش في الأنفاق من الطين داخل التربة .

وللحشرات عيون تختلف في تركيبها عن عين الإنسان أو القرد أو البقرة أو السلحفاة أو السمكة ، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف إلا أن الحشرات ترى بها الأشياء التي تنظر إليها ، واختلاف الوسائل مع تشابه الهدف لا يمكن أن يأتي عن طريق المصادفة ؛ بل يأتي نتيجة لتخطيط يقصد من ورائه الوصول إلى هدف معين .

ولقد منح الله كلّ كائن حيّ من الحواس والإدراك على قدر حاجته فالذبابة المنزلية مثلاً بحاجة إلى عين ترى بها الغذاء ، وتدرك أيَّ حركة يقصد بها الاعتداء على حياتها ؛ ولذا فقد زودها الخالق كما هي الحال في معظم الحشرات بزوج من العيون المركبة ؛ إذ إنّ كلَّ عين من هذه العيون مكونة من مئات الوحدات المتشابهة المتراصة بعضها بجوار بعض ، كلٌّ وحدة

من هذه الوحدات ترى نقطة من الشيء المرئي ، وتتجمع هذه النقط فترى الذبابة الشيء كاملاً ، كما زودها خالقها بنوع آخر إضافي من العيون نسمية العيون البسيطة ، إذ توجد ثلاثة من هذه العيون البسيطة عند قمة رأسها ، وظيفتها إدراك أيّة حركة ،وهذه العيون هي التي تجعل الإمساك بالذبابة يكاد يكون في حكم المستحيل » .

٢٢ـ كيفية تصميم العظام والمفاصل

والعظام في أجسامنا وأجسام عديد من الحيوانات نحركها عند المفاصل، فتنقبض عضلات معينة وتنبسط عضلات أخرى في الوقت نفسه في توافق عجيب ، فتتحرك اليد أو الساق أو الأصبع وغيرها في الاتجاه الذي يرغب فيه الإنسان أو الحيوان ، وتركيب المفاصل مصمم بشكل يسمح بالانزلاق ، فلا يشعر الحيوان بأي احتكاك .

كما أن تصميم الفقرات في العمود الفقري من شأنه تحمل الضغط ، وتجنب الاحتكاك ، وترابط الفقرات مع بعضها ، فهو مصمم تصميماً مذهلاً، ويحيط العمود الفقري بالحبل العصبي لحمايته ، كما تحمي الجمجمة المخ الذي بداخلها ، وتنفذ الأعصاب من الحبل العصبي من خلال ثقوب بالفقرات ، وجميع هذه التصميمات لا بدَّ أن تكون قد تكونت في وقت واحد ، إذ لو اختل جانب منها لأصبحت حركة الحيوان غير ممكنة ، فهل من المعقول أن تحدث كل هذه الترتيبات في وقت واحد نتيجة مصادفة ؟

٢٣ـ الحكمة في تجلط الدم

ومن المعروف أنّه إذا حدث جرح في أجسامنا فإنَّ الدم الذي يخرج من الأوعية الدموية المجروحة لا يلبث أن يتجلط عند مكان الجرح ، وهذا تصميم مقصود له حكمته إذ إنّ الدم المتجمد يقفل الوعاء الدموي المجروح ، فيوقف بذلك استمرار تدفق الدم من الجرح ، ولو لم يحدث هذا التجلط لظلَّ الدَّم ينزف حتى الموت .

ومما يدلُّ على أنَّ هذا تدبير مقصود من الخالق لحفظ الكائن الحي أنّنا نجده يحدث بطرق متباينة في الحيوانات المختلفة ، ولكنَّ النتيجة في جميع

الحالات واحدة ، ففي معظم الحشرات إذا جرح جسم حشرة كالصرصار مثلاً ، فإنَّ عدداً من الخلايا يتجمع ، ويكون سدادة تقفل الجرح حتى لا ينزف الدم ، بينما نجد أنَّ الدم يتجلط في بعض الحشرات كما يتجلط دمنا .

والوصول إلى هدف معين بطرق مختلفة .. كما سبق أن ذكرت ... دليل قاطع على وجود خالق يدبر ويقدر بشتى الطرق للتوصل إلى نتيجة معينة يكون من شأنها حفظ الكائن الحي .

٢٤ـ قرنا الاستشعار عند البعوض

ولا يمكن أن يكون عن طريق المصادفة أن قرني استشعار ذكر البعوض به شعيرات أطول من تلك التي في قرني استشعار أنثاه ، وكان الاعتقاد فيما مضى أنَّ هذه الشعيرات الطويلة مظهر من مظاهر الزينة ، لكي يبدو الذكر جميلاً في عين الأنثى ، ولكن اتضح أنَّ هذه الشعيرات التي في قرني استشعار الذكر قادرة على التقاط أصوات خاصة تحدثها أنثى البعوض وهي بعيدة عن الذكر بعداً شاسعاً ، وأصوات الأنثى هذه ذات موجات خاصة تشبه إلى حد كبير موجات الإذاعة .

ويحرك الذكر قرني استشعاره في شتى الاتجاهات كما نحرك نحن هوائي التلفزيون لتصبح الصورة الملتقطة أكثر وضوحاً ، وفي وضع خاص يلتقط قرنا الاستشعار صوت الأنثى واضحاً ، وعن طريق زاوية قرن استشعاره يدرك الذكر غريزياً مكان الأنثى التي تحدث الصوت ، فيطير نحوها بأقصى سرعته حيث يتم التزاوج بينهما .

وهكذا نرى أنَّ البعوض قد منحه خالقه هذه القدرة العجيبة التي تمكنه من إدراك صوت الأنثى البعيدة عنه بعشرات « الأمتار » على الرغم من وجود أصوات أخرى عديدة يموج بها الجو ، ولو لم يحدث ذلك لما تمكن الذكر من العثور على الأنثى بسهولة، ولما تمكن البعوض من البقاء جيلاً بعد جيل.

إنها محطة استقبال إذاعي في قرني استشعاره استخدمها البعوض قبل أن يتمكن الإنسان من التوصل إلى أسرار الإرسال اللاسلكي بملايين السنين ، فهل يمكن أن يحدث مثل هذا عن طريق مصادفة عمياء ؟

٢٥ـ حيوانات تومض في الظلام

ومن الحشرات ما تنبعث من أنثاها أضواء تومض في الظلام ومضات ذات تردد معين يميزها ذكر هذا النوع من الحشرات بالذات ، ولا تختلط عليه مع ومضات ضوئية لحشرات أخرى ذات تردد مختلف . عندما يرى الذكر هذه الومضات التي لا تكاد تدركها عيوننا يطير إلى أنثاه ، فيحدث التزاوج ليستمر بقاء النوع .

إن العلوم الرياضية تثبت أنّ مثل هذا التنظيم والترتيب لا يمكن مطلقاً أن يكون من صنع « طبيعة » لا عقل لها ، بل هو تخطيط من صنع خالق يعلم ماذا يصنع ويرتب ويقدر أروع تقدير لبلوغ هدف معين .

٢٦ـ عملية الهضم في الحيوان

ونحن نعلم أن تقطيع الطعام إلى أجزاء صغيرة أمر ضروري لتسهيل عملية الهضم ، والأسنان ذات تركيب وتنظيم متباين في الحيوانات المختلفة ، ولكنّها تؤدي الوظيفة نفسها وهي تقطيع الطعام .

وترتيب الأسنان في الإنسان ترتيب مذهل إذ توجد قواطع وأنياب وأضراس مرتبة ترتيباً خاصاً يجعل لكلٍّ نوع منها وظيفة معينة . ولا توجد أسنان للحيوانات التي لا تحتاج إليها ، كتلك التي تتغذى على السوائل حيث تزود بوسائل خاصة لارتشاف الغذاء السائل وتوصيله إلى القناة الهضمية. وفي أثناء المضغ في الحيوانات ذات الأسنان تفرز الغدد اللعابية إفرازها ليختلط بالغذاء حيث تبدأ عملية هضمه .

وفي المعدة والأمعاء ـ كما ذكرت فيما سبق ـ يفرز الحيوان (أنزيمات) يؤثر كلّ واحد منها في نوع معين من الغذاء ، ولا يؤثر في الأنواع الأخرى.

٢٧ـ تكون الجنين

وعملية تكوين الجنين في أي حيوان عملية مذهلة ، يكتفي العلم بملاحظة وشرح خطواتها ، ولكنَّه يقف عاجزاً عن معرفة كنهها ، والقوى التي تدفع بها نحو هدف محدود هو تكون جنين لحيوان معين .

تبدأ هذه العملية بانجذاب الخلية الذكرية (الحيوان المنوي للذكر) نحو الخلية الأنثوية (بويضة الأنثى) فتتكون الخلية الملقحة ، وتبدأ الخلية الملقحة بعد ذلك في الانقسام بوساطة قوة عجيبة كامنة فيها ، فتصبح الخلية خليتين ، ثم أربع خلايا ، ثم ثماني خلايا ، وهكذا . . حتى يصل عدد الخلايا إلى حد معين ، فتصبح على هيئة كرة جوفاء جدارها مكون من طبقة واحدة من الخلايا ، ثم ينغمد نصف الكرة داخل النصف الآخر ، فتصبح ذات جدارين خلويين .

وفي معظم الحيوانات ـ ومنها الإنسان ـ تتكون بين الطبقتين طبقة خلوية ثالثة ، وتستمر الخلايا في الانقسام ، فتتكون من كلٍّ طبقة من الطبقات الثلاث أعضاء معينة .

فمن الطبقة الخارجية يتكون الجلد والجهاز العصبي ، وبعض أجزاء أخرى، ومن الطبقة الوسطى تتكون العضلات والعظام ، ومن الطبقة الداخلية تتكون بعض أجزاء الجهاز الهضمي ، ويستمر انقسام الخلايا ، حتى يتم تكون الجنين داخل الرحم في الحيوانات الثديية أو داخل البيضة في الحيوانات التي تبيض ، وعند اكتمال تكوين الجنين يلفظ الرحم ذلك الجنين خارج الجسم في الحيوانات الثديية ، ويكسر البيضة ويخرج منها في الحيوانات التي تضع بيضاً .

٢٨ـ تركيب الأذن

وتركيب الأذن في الإنسان وفي عدد من الحيوانات الأخرى لا يمكن لأي عاقل أن يتصور حدوثه عن طريق المصادفة ، فللأذن طبلة تستقبل الموجات الصوتية فتتذبذب ، وهذه الذبذبات تؤثر في ثلاث عظام دقيقة مرتبة ترتيباً رائعاً . والضغط على جانبي الطبلة ينبغي أن يكون متساوياً، ولهذا الغرض تمتد أنبوبة خلف الطبلة توصل إلى تجويف الأنف ، ويصل بالجزء الداخلي للأذن عظمة تشبه القوقعة في شكلها ، ووظيفتها تحليل الصوت ، وتمييز الأنغام المختلفة ، كما أنَّ من وظيفتها أيضاً إحداث الاتزان ، إذ لولاها لما استطعنا أن نخطو خطوة واحدة دون أن نترنح ونسقط .

وتنتقل الذبذبات بعد ذلك عن طريق الأعصاب إلى مركز السمع بالمخ، ليدرك الإنسان أو الحيوان سماع الأصوات المختلفة بعضها عن بعض . هل يمكن أن يحدث كل هذا في وقت واحد عن طريق المصادفة ؟ إن نظرية الاحتمالات في العلوم الرياضية تنفي إمكان ذلك نفياً قاطعاً .

٢٩ـ ديدان الفلاريا

وتحدث في الكائنات الحية أشياء عجيبة ، لا تعد ولا تحصى ، تدلّ على وجود قوة عليا ترتب وتقدر لاستمرار بقاء الكائنات ، أشياء لا يمكن أن تحدث عن طريق المصادفة ، منها مثلاً: ما يحدث في دورة حياة الديدان التي تسبب المرض المسمى بمرض الفيل ، وهي التي نسميها ديدان (الفيلاريا) .

تغيض هذه الديدان في طورها الكامل في الأوعية اللمفاوية والغدد اللمفاوية للإنسان ، وتسد الأوعية اللمفاوية ، فتسبب تضخم بعض الأعضاء، وعلى الأخص الساقين أو إحداهما ، حيث تصبح ساق الإنسان في حجم ساق الفيل .

وتتزاوج هذه الديدان في أثناء وجودها داخل الأوعية اللمفاوية للإنسان ،

وتنتج ديداناً صغيرة تنتقل من الأوعية اللمفاوية إلى الأوعية الدموية ، وإذا بقيت هذه الديدان في الأوعية الدموية للإنسان فإنها تعجز عن إتمام دورة حياتها إذ لابد لها من أن تنتقل إلى جسم بعض أنواع البعوض لكي تتم تلك الدورة ، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان، فإذا امتصت البعوضة دم إنسان مصاب فإنهّا تمتص مع الدَّم عدداً من هذه الديدان الصغيرة التي تنمو داخل جسم البعوض حتى يكتمل نموها، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان إذا حقنتها البعوضة في دمه في أثناء عملية امتصاصها لدم الإنسان الذي تتغذي عليه .

ولقد حاول العلماء الحصول على هذه الديدان من دم المصابين بهذا المرض ولكن جميع محاولاتهم كانت تبوء بالفشل إلى أن حدث شيء عجيب .

في إحدى الليالي كان أحد العلماء ساهراً في معمله حتى ساعة متأخرة من الليل ، فأخذ عينة من دم إنسان مصاب وفحصها تحت الميكروسكوب ، وفوجئ بعدد هائل من هذه الديدان في العينة التي أخذها ، وفي أثناء النهار في اليوم التالي أخذ عينة من المصاب نفسه فلم يجد للديدان أثرا ، احتار في تفسير هذه الظاهرة العجيبة ، لماذا توجد هذه الديدان في عينة الدم إذا أخذها من المصاب ليلاً ، ولا تظهر إذا أخذها نهاراً ؟

واتضح أنّ تلك الديدان الصغيرة تهرب إلى الأوعية الدموية الداخلية في أثناء النهار ، ثم تعود إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد في أثناء الليل ، والحكمة من ذلك هي أنّ البعوض الذي يتغذى على دم الإنسان في هذه الأماكن لا ينشط إلا في أثناء الليل ؛ ولذا فإنَّ الديدان تنتقل إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد ؛ لكي يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم لتتم دورة حياتها داخل جسم البعوضة ، ومن الطبيعي أن هذه الديدان لا تدرك شيئاً ولا تعلم شيئاً عن البعوض التي ستتم دورة حياتها داخل جسمه ؛ بل تفعل هذا عن غريزة ، أي إنّ هناك قوة عليا تملي عليها هذا التصرف لكي تستمر حياتها .

ومن العجيب أنّه في الأماكن التي تنشط أنواع البعوض التي تمتص الدَّم

نهاراً ولا تنشط ليلاً نجد أنَّ الديدان تفعل العكس ، حيث تبقى في الأوعية الدموية الداخلية ليلاً ، وتهاجر إلى الأوعية الدموية نهاراً ، ليتمكن البعوض في هذه الحالة أيضاً من امتصاصها مع الدم ، فهل من الممكن أن يحدث هذا عن طرق المصادفة ؟

٣٠ـ مغناطيسية الأرض

إذا تركنا تركيب الكائنات الحية وما فيه من إعجاز تتيه فيه العقول ، وتأملنا في الكون الرحب وجدنا عجباً ، أولى هذه العجائب المغناطيسية الكامنة في الكرة الأرضية ، وهي التي تربطنا بالأرض ، وتمنعنا من أن نتبعثر في الفضاء في أثناء دورانها .

هذه المغناطيسية تختلف عن المغناطيسية التي نجدها في القضيب المغناطيسي . . . ، إننا نعلم أنَّ القضيب المغناطيسي قادر على جذب بعض الأشياء ، ولكنَّه يعجز عن جذب أشياء أخرى كاللحم والورق والزجاج والحجارة والرمل والماء وغيرها . . . ، ولكن مغناطيسية الأرض تجذب كلَّ شيء ، تجذب أجسامنا ، وتجذب الزجاج والرمل والماء والحجارة والورق ، إذ لو لم تجذب الأرض إليها هذه الأشياء لما بقي على سطحها شيء .

٣١ـ أحجام الأجرام السماوية وأبعادها ومداراتها

ولقد ذكر (فردهويل) أستاذ الفلك بجامعة لندن في كتابه (طبيعة الكون) أن من الكواكب ما يبلغ حجماً مذهلاً لا يكاد يتصوره العقل ، إذ تبدو الكرة الأرضية بالنسبة لأحد هذه الكواكب العملاقة كحبة الرمل.

يقول العالم الأمريكي الكبير(كريستي موريسون) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك: «إنَّ وضع الأجرام السماوية ليس مجرد مصادفة عشواء ؛ بل هي موضوعة في الفضاء بحسبان ؛ إذ إن القمر مثلاً لو كان أقرب إلى الأرض بمقدار ربع المسافة التي تفصلنا عنه لأصبح المد والجزر عنيفين حيث يغرق المد جميع أجزاء اليابسة ، فتموت غرقاً جميع حيوانات اليابسة نتيجة لذلك ، كما أن محور الأرض لو لم يكن منحرفاً بمقدار نحو ثلاث وعشرين درجة لترتب على ذلك وجود ليل دائم عند القطبين، وتكوَّن من بخار ماء المحيطات كميات هائلة من الجليد تضغط على القطبين فيتفرطح خط الاستواء، ويقل هطول الأمطار بدرجة تجعل الحياة مستحيلة على الكرة الأرضية .

وتبلغ سرعة دوران الأرض نحو ألف ميل في الساعة ، فلو فرضنا أنها تدور بسرعة مائة ميل في الساعة فقط ، لطال كل من الليل والنهار، وترتب على ذلك أن جميع النباتات والحيوانات تحترق نهاراً من شدة الحرارة، وتتجمد ليلاً من شدة البرد » .

وفي كتاب ضخم للدكتور جود أستاذ الفلسفة بجامعة لندن تناول بالدراسة ضمن ما تناوله شتى احتمالات نشأة الكون ، ونشأة الحياة من الوجهة العلمية والفلسفية ، وخلص من هذه الدراسة المستفيضة إلى أن الكون لا بد أن يكون نشأ نتيجة لعملية خلق رائعة، وصدق الله إذ يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

---

(١) سورة فصلت: ٥٣ .

المبحث الثاني
التعرف إلى الله من خلال النصوص
(مباحث الصفات والأسماء)

ذكرنا أن السبيل الثاني الذي يعرفنا بالله هو النصوص القرآنية والحديثية التي تتحدث عن الله حديثاً مباشراً مبينة صفاته وأسماءه وأفعاله .

وهذا السبيل سبيل نيِّر مأمون العواقب ؛ لأن التعرف إلى الله من خلال كلامه وكلام رسوله لا يبقي مجالاً للشك والالتباس .

وقد حرصنا على أن نسوق النصوص ذاتها في أكثر الموضوعات ؛ فإنها أقدر على التعبير والتوضيح من نصوص البشر وكلامهم ، كما حرصت على ألا أزيف النصوص بالتأويل والتحريف كما فعل كثير من السابقين كي توافق آراء البشر ومقاييسهم ، والواجب أن يغير البشر من آرائهم ومقاييسهم كي توافق النصوص .

المطلب الأول: مدى إدراك العقل لصفات الله

صفات الله التي جاء بها القرآن وتحدثت عنها السنة النبوية قسمان:

الأول: ما لا يستطيع العقل الإنساني التعرف عليه وإدراكه بنفسه ، أي من غير طريق النصوص كإثبات اليد والوجه لله .

الثاني: ما يمكن أن يستدلّ عليه بالعقل كاتصافه بالقدرة والحكمة ، ونحن لن نستقصي ذكر صفات الله ، ولكن سنذكر جملة منها توضح المراد ، وتحرر المقصود ، وتعطي تصوراً وافياً إن شاء الله تعالى .

المطلب الثاني

جملة من الصفات التي جاءت بها النصوص

١ـ لله ذات

لله ـ سبحانه ـ ذات متصفة بصفات الكمال منزّهة عن صفات النقص، والذي يقرأ حديث القرآن عن الله يعلم علماً قاطعاً بأنَّ له ذاتاً ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾(١).

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾(٢)، وعندما أراد الكفار قتل خبيب أنشد(٣).

ولستُ أبالي حين أقتل مسلماً ... على أيِّ شقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزَّع

وذات الله لا تشبه ذوات المخلوقين، كما أنَّ صفاته لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فالله هو الكمال الذي لا كمال بعده، وكلُّ مخلوق لا بدَّ أن يكون فيه نقص في جانب من الجوانب، أدناها حاجته وفقره إلى غيره.

يقول تعالى نافياً المشابهة بينه وبين خلقه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(٤).

٢ـ نفسه سبحانه

لله تعالى نفس تليق بكماله وجلاله ، لا تشبه نفوس المخلوقات ، وقد أخبرنا الله بذلك في محكم كتابه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٢) سورة الإخلاص .
(٣) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١٣/٣٨١ .
(٤) سورة الشورى: ١١ .

بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

فقد أخبر ـ سبحانه ـ أنَّ له نفساً، وأنَّه كتب على نفسه الرحمة ، ونصَّ الله على ذلك في آية أخرى ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾[2].

وقد فسرَّ الرسول ﷺ شيئاً من هذه الكتابة ، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (لمَّا قضى اللهُ الخلقَ كَتبَ كتاباً ، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تسبق غضبي) ، وفي رواية (تغلب غضبي)، متفق عليه [3]، وإثبات النفس لله منهج الرسل من قبل، فهذا عيسى يقول لرب العزة: ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[4] وقال الله لرسوله موسى: ﴿ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾[5].

وقد حذرنا الحقُّ نفسه فقال: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[6].

والله يذكر عباده في عباده الذين يذكرونه في أنفسهم ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أنَّ الرسول ﷺ قال: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) [7].

وذكر الله يرضي نفس ربنا تبارك وتعالى ، ففي حديث مسلم عن ابن عباس عن جويرية: أنَّ النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح ، وهي في مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى ، وهي جالسة، فقال: (ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟). قالت نعم.

---

(١) سورة الأنعام: ٥٤.
(٢) سورة الأنعام: ١٢.
(٣) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٢٦ ، ورقمه: ٢٣٦٤ .
(٤) سورة المائدة: ١١٦ .
(٥) سورة طه: ٤٠ ـ ٤١.
(٦) سورة آل عمران: ٣٠.
(٧) مشكاة المصابيح: ١/ ٦٩٣ ، ورقمه: ٢٢٦٤ .

قال النبي ﷺ: (لقد قلت بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته)[1].

٣ـ وجه ربنا سبحانه

لله ـ سبحانه ـ وجه لا يشبه وجوه المخلوقين، نصدّق بذلك ونؤمن به؛ لأنَّ الله أخبرنا بذلك في كتابه، ونصَّ عليه الرسول ﷺ في أحاديثه .

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[2]، يقول ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية: و﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ من نعت الوجه، فلذلك رفع (ذو)[3].

وقد نفى بعض السابقين إثبات الوجه لله تعالى ، وزعموا أنَّ الوصف بقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إنَّما هو للرب فالمنعوت بـ ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ عندهم الربُّ لا الوجه.

وقد ردَّ هذا الزعم الإمام ابن خزيمة، فقال : « هذه دعوى يدَّعيها جاهل بلغة العرب ، لأنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ قال: ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ فذكر الوجه مضموماً في هذا الموضع مرفوعاً ، وذكر الرب بخفض الباء بإضافة الوجه ، ولو كان قوله: ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾ مردوداً إلى ذكر الرب في هذا الموضع لكانت القراءة ذي الجلال والإكرام مخفوضاً. . . »[4].

ومن النصوص التي جاء فيها إثبات الوجه لله قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[5].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٠ ، ورقمه: ٢٧٢٦ .
(٢) سورة الرحمن: ٢٧ .
(٣) تفسير الطبري: انظر تفسيره آية رقم: ٢٧ من سورة الرحمن .
(٤) التوحيد ، لابن خزيمة: ص: ٢١.
(٥) سورة القصص: ٨٨.

أثر الإيمان بوجه الله تعالى

أـ قصد وجه الله بصالح الأعمال

إذا علمنا ما قرره الله فعلينا أن نقصد وجه ربنا بأعمالنا كما أرشد الله إلى ذلك في محكم كتابه ، فالعمل الذي لا يقصد به وجهه باطل: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (١).

ومن ذلك إنفاق المال ابتغاء وجهه: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ (٢).

وقد وصف عباده الصالحين بأنهم يريدون بعملهم وجهه ، ولا شيء غير وجهه ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (٣)، ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (٤)، ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ (٥).

وفي الصحيحين من حديث عتبان بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله) (٦).

---

(١) سورة القصص: ٨٨.
(٢) سورة الروم: ٣٩.
(٣) سورة الإنسان: ٩.
(٤) سورة الليل: ١٩ـ ٢٠.
(٥) سورة الكهف: ٢٨ .
(٦) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١/٥١٩ ، ورقمه: ٤٢٥ ، وصحيح مسلم: ١/٤٥٥ .

ب ـ الاستعاذة بوجهه سبحانه

وقد فعل ذلك الرسول ﷺ فقد روى جابر بن عبدالله أنّه « لما نزلت هذه الآيـة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾[1]، قال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهك) فقال: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾[2]، فقال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهـك)، قال: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[3] فقال النبي ﷺ: (هذا أيسر)[4].

وعن علي بن أبي طالب: أن رسـول الله ﷺ كان يقـول عند مضـجعـه: (اللهم إني أعـوذ بوجهك الكريم، وبكلمـاتك التامات من شـرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها). رواه أبو داود[5].

جـ ـ إجابة من سألك بوجه الله

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من استعاذ بالله فأعيذُوهُ، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه)[6].

د ـ الطمع في رؤية وجه الله

عن عـمار بن ياسـر أن الرسول ﷺ كـان يدعو فـيقـول: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي.

اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة.

وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرِّضا.

وأسألك القصد في الفقر والغنى.

---

(١) سورة الأنعام: ٦٥.
(٢) سورة الأنعام: ٦٥.
(٣) سورة الأنعام: ٦٥.
(٤) صحيح البخاري: ١٣/٣٨٨. ورقمه: ٧٤٠٦.
(٥) جامع الأصول: ٤/٢٧١. ورقمه: ٢٢٦٣، وإسناده حسن، كما ذكر محقق جامع الأصول.
(٦) رواه أبو داود في سننه، انظر صحيح سنن أبي داود: ٣/٩٦١، ورقمه: ٤٢٦٠، وقال الألباني فيه: حسن صحيح، والأسماء والصفات، للبيهقي: ١/٣٠٦.

وأسألك نعيماً لا يبيدُ .

وأسألك قرة عين لا تنقطع .

وأسألك الرضا بعد القضاء .

وأسألك برد العيش بعد الموت .

وأسألك لذة النظر إلى وجهك .

وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة .

اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين)[1] .

وقد فسر النبي ﷺ الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[2] بأنها النظر إلى وجه ربنا عزَّ وجلَّ، ونقل القول بذلك عن أبي بكر وحذيفة ثم قال: (الآثار في معنى هذا عن الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - كثيرة)[3] .

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ، وتنجنا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجل) ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[4][5] .

وقد جاء في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال: (جنتان من فضة: آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب: آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن)[6] .

---

(١) رواه ابن خزيمة في التوحيد: ص:١٢ ، والنسائي في سننه: انظر صحيح سنن النسائي:١/ ٢٨٠، ورقمه: ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، وإسناده صحيح .

(٢) سورة يونس: ٢٦ .

(٣) الأسماء والصفات ، للبيهقي: ص: ٣٠٨.

(٤) سورة يونس: ٢٦ .

(٥) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦٣ ،ورقمه: ١٨٠ .

(٦) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/ ٤٢٣ ، ورقمه: ٧٤٤٤ ، ورواه أيضاً في: ٨/ ٦٢٣ ، ورقمه: ٤٨٧٨ ، بلفظ مقارب ، ورواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦٣ ورقمه: ١٨٠ ، ورواه ابن خزيمة بلفظ: (وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى وجه ربهم) ، وقال محقق كتاب التوحيد معلقاً على الحديث: ورواه البيهقي في الأسماء والصفات ص: ٢٢٢.

حجاب وجهه تبارك وتعالى:

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعملُ النهار قبل عمل الليل ، حِجَابُهُ النور (وفي رواية أبي بكر: النار) لو كشفه لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) [1].

وهذا التردد من الراوي في لفظ النُّور والنَّار لا يضرّ ، فإن مثل هذه النَّار الصافية التي كلم الله بها موسى يقال لها: نور ونار كما سمّى الله نار المصباح نوراً ، بخلاف النَّار المظلمة كنار جهنَّم فتلك لا تسمى نوراً.

وهذه الحجب تحجب العباد عن الإدراك ، كما قد يحجب الغمام والسقوف عنهم الشمس والقمر ، فإذا زالت تجلت الشمس والقمر ، وليس المراد أنهَّا تحجب الله عن الرؤية ، فهذا لا يقوله مسلم ، فإنَّ الله لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، ولكن يحجب أنواره إلى مخلوقاته. كما قال: (لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) فالبصر يدرك الخلق كلهم ، وأما السبحات فهي محجوبة بحجابه النور أو النَّار .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١/١٦١ ، ورقمه: ١٧٩ .

٤ـ لله سبحانه يدان

ولله ـ سبحانه وتعالى ـ يدان تليقان بجلاله وكماله ، لا تشبهان شيئاً من أيدي المخلوقين ، قال تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾، [(١)] ، وقال مقرّعاً إبليس حين رفض السجود لآدم: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [(٢)].

تمجيد الله بذكر يديه:

وردت أحاديث عديدة فيها تمجيد الرب ـ تبارك وتعالى ـ بذكر يديه، وأن الخير فيهما ، فأهل الجنة يناديهم ربهم فيقول لهم: (يا أهل الجنّة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك) [(٣)] .

وينادي ربنا آدم عليه السلام يوم القيامة ، فيقول آدم مجيبا: (لبيّك وسعديك ، والخير كله في يديك) [(٤)] .

وكان من دعاء الرسول ﷺ إذا قام إلى الصلاة من الليل: (لبيك وسعديك ، والخير في يديك) [(٥)] .

وكان من تلبية ابن عمر: « لبيك وسعديك ، والخير في يديك » [(٦)].

---

(١) سورة المائدة: ٦٤.
(٢) سورة ص: ٧٥ .
(٣) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/ ٤٨٧ ، ورقمه: ٧٥١٨.
(٤) رواه البخاري في صحيحه: ١١/ ٣٨٨ ، ورقمه: ٦٥٣٠ ، وانظر أيضاً: ٦/ ٣٨٢ . رقم: ٣٣٤٨. ورواه مسلم: ١/ ٢٠١ . ورقمه: ٢٠١ .
(٥) رواه مسلم: ١/ ٥٣٤ ، ورقمه: ٧٧١.
(٦) رواه مسلم: ٢/ ٨٤١ ، ورقمه: ١١٨٤ .

بسط الربِّ يديه:

وهو ـ سبحانه ـ كريم يبسط يديه بالعطاء والإنفاق ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (١).

كما أنَّه يبسط يديه بالليل والنهَّار ليتوب العباد ، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: (إن الله يبسط يده بالليل ، ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها) (٢).

الأشياء التي خلقها الرحمن بيده:

لا يعجز الله شيء ، فإذا أراد شيئاً خلقه بكلمة (كن) ، فيكون كما أراد، إلا أنَّه خلق بيده أشياء مما يدلُّ على تكريمها ، ورفع منزلتها، وعناية الله بها ، والمخلوقات التي خلقها الله بيده ، وذكرها لنا في كتابه أو وردت في سنة رسوله هي:

أـ آدم:

وفي ذلك يقول تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٣)

وفي حديث الشفاعة الطويل: (فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس، خلقك الله بيده ، وأسكنك جنته) متفق عليه (٤).

وفي حديث احتجاج آدم وموسى ، قال موسى لآدم: (أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من رُوحه) (٥).

فأخبر الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ أنه خلق آدم بيده ، وأخبر الرسول ﷺ أنَّ الناس يستشفعون إلى آدم ، ويذكرون أعظم ما فضله الله به ، وهو خلق الله

---

(١) سورة المائدة: ٦٤ .
(٢) صحيح مسلم: ٤/٢١١٣، ورقمه: ٢٧٦.
(٣) سورة ص: ٧٥ .
(٤) مشكاة المصابيح: ٣/٦٩ ، ورقمه: ٥٥٧٢ .
(٥) رواه مسلم: ٤/٢٠٤٣ ، ورقمه: ٢٦٥٢ .

له بيده ، وكذلك موسى عليه السلام ذكر ما فَضَّلَ اللهُ به آدم ، وهو خلقه بيده ، وذكر هذه الخصوصية تدل على أمر امتاز به آدم عن غيره ، وإلا فلو كانت اليد هنا القدرة فأي فضل لآدم على غيره ، حتى يمتدح بذلك.

ب ـ كتب التوراة بيده:

ورد في بعض روايات حديث المحاجَّة بين آدم وموسى ، أن آدم قال لموسى: (أنت موسى اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك التوراة بيده)[1].
وفي رواية في الصحيحين: (اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده)[2].

جـ ـ كتب بيده كتاباً موضوعاً عنده:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده: غلبت ـ أو قال: سبقت ـ رحمتي غضبي ، فهو عنده فوق العرش).

وفي رواية: (إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق: أن رحمتي سبقت غضبي ، فهو مكتوب عنده فوق العرش)[3] .

ورواه ابن ماجة عن أبي هريرة بلفظ: (كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق : رحمتي سبقت غضبي)[4] .

ورد إثبات كتابة الرحمن الكتاب بيده في كتاب السنة لابن أبي عاصم، ولفظه: (لما قضى الله تعالى الخلق كتب بيده في كتاب عنده: غلبت أو قال سبقت رحمتي غضبي ، فهو عنده فوق العرش) أو كما قال[5] .

---

(١) صحيح سنن أبي داود: ٣/٨٩١ ، ورقم الحديث: ٣٩٣٤ ، وصحيح سنن ابن ماجة: ١/٢٠ ، ورقمه: ٦٥ .
(٢) صحيح البخاري: ١١ ، ورقمه ٦٦١٤، وصحيح مسلم: ٤/٢٠٤٢ ، ورقمه: ٢٦٥٢.
(٣) صحيح البخاري: ١٣/٥٢٢ ، ورقمه: ٧٥٥٤ . والحديث في صحيح مسلم: ٤/٢١٠٧ ، ورقمه: ٢٧٥١ .
(٤) ابن ماجة . انظر صحيح سنن ابن ماجة : ١/٣٧ ، ورقمه:١/٣٧، ورقمه: ١٥٦ .
(٥) كتاب السنة ، لابن أبي عاصم: ١/٢٧٠ . ورقمه: ٦٠٨ .

د ـ غرس جنة عدن بيده:

ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (سأل موسى ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجيء بعدما أدْخل أهل الجنة الجنة، فيُقال له: ادخل الجنة ، فيقول: أي رب ، وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من مُلوك الدنيا ؟ فيقول: رضيتُ ربِّ، فيقول: لك ذلك ، ومِثلهُ ومِثلهُ ومِثلهُ ، فقال في الخامسة: رضيت ربِّ ، فيقولُ: هذا لك ، وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك فيقول: رضيت ربّ .

قال: ربِّ فأعلاهُم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، قال: ومصداقه في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١)(٢). فقد أخبر: أنه غرس جنتهم بيده سبحانه.

عظم يدي الرب سبحانه وتعالى:

جاء في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (٣).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: (يقبض الله ـ تبارك وتعالى ـ الأرض يوم القيامة ، ويَطوي السّماء بيمينِهِ ، ثُمَّ يَقُول: أنا الملك ، أين مُلوك الأرض) (٤).

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (يطوي اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ السَموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول: أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين

---

(١) سورة السجدة: ١٧.
(٢) صحيح مسلم: ١/١٧٦ ، ورقمه: ١٨٩ .
(٣) سورة الزمر: ٦٧ .
(٤) رواه البخاري: ٨/٥٥١ ، ورقمه: ٤٨١٢ ، ورواه مسلم: ٤/٢١٤٨ ، ورقمه: ٢٧٨٧ .

المُتكبرون؟ ثمَّ يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقولُ: أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟) .

وفي لفظ قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: (يأخُذُ الجبار - عزَّ وجلَّ - سمواته وأرضيه بيديه ، فيقول: أنا الله (ويقبض أصابعه ويبسطها) أنا الملك) ، « حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفلِ شيء منه، حتى إنّي لأقول: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ » [1].

كلتا يديه - سبحانه - يمين:

ورد في رواية في صحيح مسلم: (ثم يطوي الأرضين بشماله) وقد ضعف هذه الرواية البيهقي من ناحية الإسناد فقال: « ذكر الشمال فيه ، تفرد به عمر بن حمزة عن سالم ، وقد روى هذا الحديث نافع وعبيدالله بن مقسم عن ابن عمر ، لم يذكرا فيه الشمال » [2].

وضعفها من ناحية المتن فقال: « وكيف يصحُّ ذلك وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنّهُ سمَّى كلتا يديه يَميناً » [3].

وعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نُور على يمين الرحمن - عزَّ وجلَّ - وكلتا يديه يمينٌ ، الذين يعدِلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا) [4].

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢١٤٨ ، ورقمه: ٢٧٨٨ .
(٢) الأسماء والصفات ، للبيهقي: ١/٣٢٤.
(٣) المصدر السابق .
(٤) رواه مسلم في صحيحه: ٣/١٤٥٨ ، ورقمه: ١٨٢٧ .

٥ـ أصابع الرحمن

ولله ـ سبحانه ـ أصابع لا تشبه شيئاً من أصابع المخلوقين ، وهي تليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى ، ففي صحيحي البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه: « أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد ، إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ »[(١)].

وفي لفظ « فضحك رسول الله ﷺ تعجبا وتصديقا »[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع النبي ﷺ قال: (إن قُلوب بني آدم كُلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه كيف يشاء) ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: (اللهم مُصرف القلوب صرف قُلوبنا إلى طاعتِكَ)[(٣)].

---

(١) سورة الزمر: ٦٧ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/٣٩٣، ورقمه: ٧٤١٤ . ورواه مسلم: ٤/٢١٤٧ . ورقمه: ٢٧٨٦ .

(٣) صحيح مسلم: ٤/٢٠٤٥ ، ورقمه: ٢٦٥٥ .

٦ـ ما ذكر في القدم

عنون البيهقي بالعنوان السابق في كتابه (الأسماء والصفات: ٣٤٨) وذكر فيه عدة أحاديث:

١ـ منها الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد حتى يضع فيها ربُّ العزَّة قدمه ، فتقول قط قط وعزتك، ويُزْوَى بعضها إلى بعض) وفي بعض الروايات: (ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى يُنْشئ الله لها خلقاً ، فيسكنهم فضل الجنة) [(١)].

٢ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (تحاجَّت الجنة والنار ، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمُتجبرين ، وقالت الجنةُ: فما لي لا يدخُلني إلا ضُعفاء النَّاس وَسقَطهُمُ وَغرُّهُمُ ، قال اللهُ للجنّة: أنت رحْمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي ، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ،ولكُلٍّ واحدةٍ منكما ملؤُها، فأمَّا النَّار فلا تمتلئ حتى يضع الله ـ تبارك وتعالى ـ رجله ، فتقول قط قط قط ، فهنالك تمتلىء ويُزْوَى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأمَّا الجنةُ فإنَّ الله يُنشئ لها خَلقاً) [(٢)].

٣ـ وعن ابن عباس أنَّه قال في الكرسي : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(٣)]: (موضع القدمين) [(٤)].

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٥٩٤، ورقمه: ٤٨٤٨، ٤٨٤٩ ، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٨٧، ٢١٨٨ ، ورقمه: ٢٨٤٨ . واللفظ لمسلم.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٥٩٥ ، ورقمه: ٤٨٥٠ ، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٨٦ ، ورقمه: ٢٨٤٦ ، واللفظ لمسلم.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٤) انظر مختصر العلو ، للذهبي ص: ١٠٢ ، وقال فيه محققه الشيخ ناصر الدين الألباني: صحيح موقوف ، وعزاه إلى ابن خزيمة ، في التوحيد: ٧١ـ٧٢ ، والدارمي في الرد على المريسي: ٧١، ٧٣ ـ ٧٤ ، وابن أبي شيبة ، في العرش: ٢/ ١١٤.

٧ـ لله سبحانه ساق

يجب علينا أن نصدق بذلك ولا نكذّبه ، لأنّه ـ سبحانه ـ قد أخبرنا بذلك، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[١] وقد ورد في الصحيحين ما يفسر هذه الآية ويوضحها، فعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة ، فيذهب ليسجد،فيعود ظهرُهُ طبقاً واحداً)[٢].

وينبغي أن ننبه هنا إلى أن إثبات الساق لله كإثبات اليد والسمع والبصر وغيرها من الصفات ، وما ورد عن ابن عباس أنه فسر كشف الساق بمعنى شدة الأمر معارض بما ثبت عن ابن مسعود أن ربنا يكشف عن ساقه[٣] .

وما أحسن ما قاله الشوكاني حيث قال: « قد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً ، فليس كمثله شيء »[٤].

وقد أورد ابن جرير الطبري وابن كثير تفسير ابن عباس كما أوردا روايات الحديث المفسر للنص القرآني ، ولم يؤولا الحديث بحمله على غير ظاهره مما يدل على أنه لا تعارض عندهما بين الحديث وكلام ابن عباس ، فإن الأمر شديد في يوم القيامة ، ولا ينافي هذا أن يكشف عن ساقه .

---

(١) سورة القلم: ٤٢.
(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٦٦٤ ، ورقمه: ٤٤١٩ ، ورواه مسلم: ١/ ١٦٧ ، ورقمه: ١٨٣ ، واللفظ للبخاري .
(٣) فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٣١٩ .
(٤) المصدر السابق: ٥/ ٣٢٠ .

٨ـ استواؤه على العرش

العرش أعظم المخلوقات كلها ، وقد نصَّ الله في سبعة مواضع من كتابه على استوائه على العرش بقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[1].

والدليل على أن العرش مخلوق من مخلوقات الله :﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾[2] أي في يوم القيامة ، وقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[3] فقد أخبر أن للعرش حملة وأنهم يستغفرون للمؤمنين ، وهذا ينفي قول من يقول أن العرش هو الملك .

وفي الحديث الذي يرويه البخاري: (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنَّه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تُفجّرُ أنهارُ الجنة)[4] .

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تخيِّروني على موسى ، فإنَّ الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانبي العرش ، فلا أدري أكان موسى فيمن صعق ، فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله)[5] .

وفي رواية في الصحيح عن أبي سعيد الخدري: (فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش)[6] .

فكيف لا يكون العرش خلقا من خلق الله وهو سقف الفردوس ، وكيف يمكن لموسى أن يمسك بقائمة من قوائمه لو كان غير مخلوق !!

وقد أخبر الرسول ﷺ: (أن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي)[7] .

---

(١) سورة طه: ٥ .
(٢) سورة الحاقة: ١٧ .
(٣) سورة غافر: ٧ .
(٤) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٤ ، ورقمه: ٧٤٢٣ .
(٥) صحيح البخاري: ١١/ ٣٦٧ ، ورقمه: ٦٥١٧ ، ٦٥١٨ ، والحديث في مسلم أيضا: ٤/ ١٨٣٤ ، ورقمه: ٢٣٧٣ .
(٦) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٥ ، ورقمه: ٧٤٢٧ .
(٧) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٤ ، ورقمه: ٧٤٢٢ .

عظم العرش:

وصف الله العرش بأنه عظيم ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

وقد بين الرسول ﷺ عظمة العرش بوجهين من البيان:

الأول: بإخباره عن عظم الملائكة الذين يحملون العرش، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح إلى الرسول ﷺ: (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله، من حملة العرش: ما بين شحمة أذنِهِ إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[2].

والوجه الثاني: بين الرسول عِظمَهُ بأن صوَّر سعة العرش بالنسبة للسموات والأرض، وصغرهما بالنسبة إليه، قال ﷺ: (ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي، كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة)[3].

تمجيد الله نفسه باستوائه على العرش وأنه ربُّ العرش:

وقد امتدح الربُّ نفسه بأنَّه مستو على عرشه، كقوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[4].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]، وامتدح نفسه في أكثر من آية بأنه صاحب العرش ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[6] ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ

---

(١) سورة المؤمنون: ٨٦ .

(٢) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٩٥ ، ورقمه: ٣٩٥٣ .

(٣) أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن جرير وغيرهم ، وهو صحيح بمجموع طرقه ، انظر كلام الشيخ الألباني على إسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حديث رقم: ١٠٩ .

(٤) سورة طه: ١ـ٥ .

(٥) سورة الحديد: ٤.

(٦) سورة البروج: ١٥ـ ١٦ .

سَبِيلًا﴾ [1].

وامتدح نفسه بأنه رب العرش ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [2]، ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [3]، ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [4].

ومن شعر عبدالله بن رواحة يمجد ربّه سبحانه وتعالى:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأنَّ النَّار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش ربُّ العالمينا

وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الإله مسوّمينا

روى هذا الشعر ابن عبد البر في الاستيعاب وقال: رويناه من وجوه صحاح.

معنى استوائه على العرش:

نحن نجهل كيفية استوائه سبحانه، لأننا نجهل كيفية ذاته، ولكنّنا نعرف معنى استوى في لغة العرب، فالعرب عندما يعدون استوى بعلى يقصدون بهذه الكلمة معاني أربعة: استقر، وعلا، وارتفع، وصعد، كما حقق ذلك ابن القيم [5].

وقد نقل أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة أنهم فسروا (استوى على العرش) بمعنى استولى عليه [6]، فالذي يؤول الاستواء هذا التأويل سلفه في هذا المعتزلة وبئس السلف هم.

أما أهل السنة وأصحاب الحديث فإنهم يثبتون استواءه على العرش، ولا

---

(١) سورة الإسراء: ٤٢.
(٢) سورة التوبة: ١٢٩.
(٣) سورة الأنبياء: ٢٢.
(٤) سورة المؤمنون: ٨٦.
(٥) انظر شرح الواسطية للهراس: ص٨٠.
(٦) مقالات الإسلاميين: ص ١٥٧، ٢١١.

ينفونه ، ولا يكيفونه كما نقل ذلك عنهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله[1].

وقد نقل لنا أهل اللغة أن العلماء بالعربية الذين لم تتدنس فطرهم بقاذورات الفلسفات الوافدة أبوا أن يفسروا استوى باستولى .

قال داود بن علي الأصبهاني: كنت عند ابن الأعرابي ، فأتاه رجل فقال: ما معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فقال ابن الأعرابي: هو على عرشه كما أخبر ، فقال: يا أبا عبدالله : إنما معناه استولى فقال ابن الأعرابي: فما يدريك ؟ العرب لا تقول استولى على الشيء حتى يكون له مضاد ، فأيهما غلب فقد استولى عليه ، أما سمعت قول النابغة:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد[2]

وهذا النهج ، وهو معرفة معنى الاستواء وجهل الكيفية والنهي عن البحث فيها هو منهج السلف الصالح، فعندما سئل الإمام مالك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[3] كيف استوى؟

أطرق مالك ، وأخذته الرحضاء ، ثم رفع رأسه فقال: « الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال: كيف ؟ وكيف عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه »[4] .

وفي رواية عن مالك أنه قال: « الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »[5] .

وقوله « غير مجهول » أي معلوم ، والمعلوم منه معناه ، فإن له في لغة العرب معنى تفقهه العرب ، وتعيه ، ويمكن للعالم أن يفسره ، ويترجمه ، ولذا فإن كثيرا من الذين حكوا عن الإمام مالك مقالته السابقة ينقلونها عنه

---

(١) مقالات الإسلاميين : ص٢١١ ، ٢٩٠ .
(٢) لسان العرب: ٢/٢٤٩ .
(٣) سورة طه: ٥ .
(٤) رواه البيهقي وصححه الذهبي: انظر مختصر العلو للعلي الغفار ، للذهبي: ص ١٤١ حديث رقم: ١٣١ .
(٥) انظر مختصر العلو: ص ١٤١ ، وحديث رقم: ١٣٢ .

بالمعنى ، فيذكرون أنه قال في الرد على الرجل: «الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة [1]، ولا فرق في الحقيقة بين القول إن الاستواء معلوم ، أو أنه غير مجهول ، فمعناهما واحد » .

يقول القرطبي رحمه الله تعالى :« كان السلف الأول ـ رضي الله عنهم ـ لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله .

ولم ينكر أحد أنه استوى على عرشه حقيقة ، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته.

قال مالك: الاستواء معلوم ـ يعني في اللغة ـ والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها . وهذا قدر كاف » [2]

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/٢١٩ .
(٢) تفسير القرطبي: ٢/٢١٩ .

٩ـ أين الله ؟

أخبرنا - سبحانه - أنَّه في السماء، مستو على عرشه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (١).

وقد أخبر الرسول ﷺ عن ربِّه أنّه في السماء ، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباح مساء) (٢).

وشهد للجارية بالإيمان عندما أخبرته أن الله في السماء ، ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود: أنَّ معاوية بن الحكم السلمي ضرب جارية له لتقصيرها في الحفاظ على أغنامه، ثم ندم فجاء إلى الرسول ﷺ نادماً يستأذنه في إعتاقها ، فطلبها الرسول ﷺ وسألها (أين الله) ؟ قالت: في السماء. قال: (من أنا) قالت: أنت رسول الله ، قال: (اعتقها فإنها مؤمنة) (٣).

وقد أرشد الرسول ﷺ المريض أن يدعو لنفسه أو يدعو له أخوه بهذا الدعاء ـ وفيه النص على أنه تعالى في السماء ـ (ربنا الله الذي في السماء تقدَّس اسمك ، أمرُك في السماء والأرض ، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا ، أنت رب الطيبينَ ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ) (٤).

وفي حديث عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)(٥).

---

(١) سورة الملك: ١٦ـ١٧.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٦٦ ، ورقمه: ٤٣٥١ ، وصحيح مسلم: ٢/ ٧٤٢، ورقمه: ١٠٦٤ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٨٢ ، ورقم الحديث: ٥٣٧ ، ورواه أبو داود في سننه ، انظر صحيح سنن أبي داود: ١/ ١٧٥ ، ورقمه: ٨٢٣، وانظر: ٣/ ٦٣٢ ، ورقمه: ٢٨٠٩.

(٤) سنن أبي داود: ٤/ ١٦ . ورقمه: ٣٨٩٢ .

(٥) رواه الترمذي ، انظر صحيح سنن الترمذي: ٢/ ١٨٠ ،ورقمه: ١٥٦٩ ، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح .

معنى كونه في السماء:

وليس المراد بأنه في السماء أنَّ جرم السماء تحويه ـ سبحانه وتعالى عن ذلك ـ بل المراد بالسماء العلو والفوقية ، فقد وصف نفسه ـ سبحانه ـ بأنَّه الأعلى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ (١)، وبأنه العلي العظيم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (٢).

وأخبر تعالى أنَّه فوق عباده: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (٣)، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ (٤) وفي تمجيد الرسول ﷺ لربِّه في دعائه يقول: (وأنت فليس فوقك شيء) (٥).

وكانت زينب تفخر على زوجات الرسول ﷺ وتقول: (زوجكن أهاليكن وزوّجني الله من فوق سبع سموات) (٦).

ولا يمكن لمسلم يفقه عقيدته حق الفقه أن يظن أنَّ الله في السماء بمعنى أنَّ السماء تحويه ، وأنَّه في جرم السماء ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، كيف والسموات ليس بشيء بالنسبة إليه سبحانه ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ (٧)، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ﴾ (٨).

---

(١) سورة الأعلى: ١.
(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.
(٣) سورة النحل: ٥٠.
(٤) سورة الأنعام: ١٨ .
(٥) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٨٤، ورقمه: ٢٧١٣ .
(٦) صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٩٢، ورقمه: ٢٥٦٦.
(٧) سورة الزمر: ٦٧.
(٨) سورة الأنبياء: ١٠٤.

كثرة الأدلة:

والأدلة من الكتاب والسنة على أنَّه تعالى في السماء فوق عباده ظاهر عليهم كثيرة جداً ، ويحتاج استقصاؤها إلى صفحات طويلة ، ويمكن أن نصنفها على النحو التالي:

١ـ الأدلة الدالة نصاً على أنَّه في السماء ، وقد ذكرناها .

٢ـ الأدلة الدالة على أنَّه مستو على العرش ، وقد سبقت .

٣ـ الأدلة الدالة على علوه ، وأنه فوق عباده ، وقد ذكرنا طرفاً منها.

٤ـ النصوص الدالة على أن بعض مخلوقاته عنده ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾[1].

وقال في الشهداء: ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[2].

وهي نصوص كثيرة.

٥- النصوص المخبرة برفع بعض الأشياء أو عروجها وصعودها إليه، كالآيات المصرحة برفع عيسى بن مريم ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾[3] والمخبرة بصعود الأعمال إليه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[4]، والنصوص المخبرة بصعود أرواح المؤمنين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾[5].

فدل النصُّ على أنَّ المؤمنين تفتح لهم ، وقد جاءت الأحاديث مفسرة ذلك وموضحة له .

ومن ذلك عروج الملائكة إليه ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾[6] .

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٦.
(٢) سورة آل عمران: ١٦٩ .
(٣) سورة النساء: ١٥٨ .
(٤) سورة فاطر: ١٠.
(٥) سورة الأعراف: ٤٠.
(٦) سورة المعارج: ٤ .

٦- ومنها إخباره بإنزال الملائكة ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾[1]، وإخباره بإنزال الكتب ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾[2].

٧- ومنها رفع الأيدي والأبصار إليه ، وقد وردت أحاديث كثيرة ذكر فيها رفع الرسول ﷺ يديه في الدعاء ، وكلُّ منْ حزَبه أمرٌ فإنه يرفع يديه إلى العلو يدعو الله .

وكذلك رفع البصر ، فإنه ثبت في الدعاء بعد الوضوء .

٨ - ومن ذلك إشارته ﷺ بأصبعه إلى العلو كما في حديث حجة الوداع عندما قالوا: نشهد إنَّك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: (اللهم اشهد، اللهم اشهد) [3] .

وإن أحببت المزيد من ذكر الأدلة وأقوال سلف الأمة فراجع ما جمعه أهل العلم في مدوناتهم في هذا الموضوع .

علوه - سبحانه - لا ينافي قربه:

فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويعلم سرَّه ونجواه ، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته ، ويعلم ما توسوس به النفوس ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزلُ من السماء ، وما يعرج فيها، وهو مع خلقه بعلمه وقدرته ، لا تخفى عليه منهم خافية ، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، فهو - سبحانه - القريب في علوِّه ، العلي في دنوِّه ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

---

(١) سورة النحل: ٢.

(٢) سورة الأنعام: ٩٢.

(٣) رواه أبو داود: ١/ ٣٥٨ ،ورقمه: ١٩٠٥ ، وأصل الحديث في الصحيحين ، ولكني لم أجد فيهما رفع الرسول ﷺ أصبعه إلى السماء ونكتها إليهم .
نعم في صحيح البخاري أنه رفع رأسه فقال: (اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت) . انظر صحيح البخاري: ٣/ ٥٧٣ ، ورقمه: ١٧٣٩ .

١٠ـ ضحك ربنا سبحانه

وهو ـ سبحانه ـ يضحك متى شاء ، كيف شاء ، نؤمن بذلك ونصدّقه ، ولا ندري كيفيته ، ولسنا مطالبين بأن ندري .

وقد ثبت في ذلك أخبار صحاح منها:

١ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: (يضحك الله إلى رجُلين يقتل أحدهما الآخر ، يدخلان الجنة ، يُقاتل هذا في سبيل الله فيُقتَلُ ، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد) [(١)].

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه ، فلم يجد عندهن شيئا .

فقال رسول الله ﷺ: (ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله) .

فقام رجل من الأنصار ، فقال: أنا يا رسول الله .

فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله لا تدخريه شيئا.

فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية .

قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي ، فأطفئي السراج ، ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت .

ثمَّ غدا على رسول الله ﷺ فقال: (لقد عجب ـ عزَّ وجلَّ ـ أو ضحك من فلان وفلانة)، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[(٢)][(٣)].

٣ـ وفي صحيح البخاري من حديث طويل عن أبي هريرة يرفعه:(ثمَّ يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ٦/ ٣٩ . ورقمه: ٢٨٢٦ ، ورواه مسلم: ٣/ ١٥٠٤ . ورقمه: ١٨٩٠ ، واللفظ للبخاري .

(٢) سورة الحشر: ٩ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٦٣١ ، ورقمه: ٤٨٨٩ . ورواه مسلم: ٣/ ١٦٢٥ . ورقمه: ٢٠٥٤ واللفظ للبخاري.

هو آخر أهل النار دخولاً الجنة ، فيقول: أي ربِّ اصرف وجهي عن النار ، فإنَّهُ قد قَشَبَنِي ريحها ، وأحرقني ذكاؤها ، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه .

ثم يقول الله: هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره ؟ فيقول: لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار .

فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول: أي ربِّ قدِّمني إلى باب الجنة ، فيقول الله له: ألستَ قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيت أبداً ، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك . فيقول: أي ربِّ ويدعُو الله حتى يقول: هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ؟ فيقول: لا وعزَّتك لا أسألك غيره ؟ ويُعْطِي ما شاءَ مِنْ عُهودٍ ومواثيق .

فيُقَدِّمه إلى بَاب الجَنَّةِ ، فإذا قَامَ إلى باب الجنة انْفَهَقَتْ لهُ الجنة ، فرأى ما فيها من الحَبْرَةِ والسرور ، فَيَسْكتُ ما شاء الله أن يسكت ، ثمَّ يقول: أي ربِّ أدْخِلني الجنة ، فيقول الله: ألست قد أعطيت عُهُودَكَ ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطِيت . فيقول: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ، فيقول: أي ربِّ لا أكون أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك الله منه ، قال: ادخل الجنة)[1].

وفي رواية عند مسلم في حديث عبدالله بن مسعود: أنَّ الله يقول لهذا الرجل: (أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول يا رَبِّ: أتستهزئُ مني وأنت ربُّ العالمين ؟) وضحك رسول الله ﷺ ، فقالوا: مم تضحك يا رسول الله ؟ قال:(من ضحكِ رَبِّ العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت ربُّ العالمين ؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك ، ولكني على ما أشاء قادر)[2].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٢٠ ، ورقمه: ٧٤٣٧ .
(٢) رواه مسلم: ١/ ١٧٥ . ورقمه: ١٨٧ .

١١، ١٢ـ نزوله ـ سبحانه ـ ومجيئه

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كل ليلة إلى سماء الدُّنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له) [١].

وقد نصَّ القرآن على أنَّ الله يأتي يوم القيامة لفصل القضا﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [٢] ، ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [٣] .

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة ، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزلُ الله في ظُللٍ من الغمامِ من العرش إلى الكُرسي) [٤].

١٣ـ كلام الله

والله ـ سبحانه ـ يتكلم متى شاء كيف يشاء ، لا يشبه كلامه كلام المخلوقين، وقد كلم الله بعض خلقه وكلموه، منهم نبي الله موسى ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [٥]، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [٦].

وقد ذكر لنا الله ما دار بينه وبين موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ

---

(١) رواه البخاري: ٣/٢٩ . ورقمه: ١١٤٥ . ورواه مسلم: ١/٥٢١. ورقمه: ٧٥٨ ، واللفظ للبخاري .

(٢) سورة البقرة: ٢١٠ .

(٣) سورة الفجر: ٢١ـ٢٢.

(٤) رواه ابن منده ، وقال الذهبي: إسناده حسن ، وصححه جمع من حفاظ الحديث ونقاده كالحاكم والمنذري والهيثمي .

(٥) سورة النساء: ١٦٤ .

(٦) سورة الأعراف: ١٤٣.

وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

وكلم الله آدم وحواء ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

ويكلم الله جبريل ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إنَّ الله أحبَّ فلاناً فأحبه ، فيُحبهُ جبريل ، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إنَّ الله قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض)[3].

وتسمع الملائكة ربهم حين يتكلم ، ففي الصحيح عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ ، قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله ، كأنّه سلسلة على صفوان ، فإذا فزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم ، قالوا: الحقَّ ، وهو العلي الكبير)[4].

وهذا الحديث أورده البخاري تفسيرا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[5].

فقد جعل البخاري هذه الآية بابا، ثم قال: « ولم يقل ماذا خلق ربكم»، وأورد في هذا الباب ما رواه مسروق عن ابن مسعود معلقاً موقوفاً عليه: « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئا ، فإذا فزع عن قلوبهم ، وسكن الصوت ، عرفوا أنه الحق ، ونادوا: ماذا قال ربكم » .

وأورد حديثاً معلقا يرويه جابر عن عبدالله بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الله العباد فيناديهم بصوت ، يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان)[6].

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٢) سورة الأعراف: ٢٢.
(٣) رواه البخاري: ١٣/ ٤٦١ ، ورقمه: ٧٤٨٥. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٠ . ورقمه: ٢٦٣٧ ، واللفظ للبخاري.
(٤) رواه البخاري: ١٣/ ٤٥٣، ورقمه: ٧٤٨١ .
(٥) سورة سبأ: ٢٣ .
(٦) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٥٢ .

وقال البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) معلقاً على هذا الحديث : « في هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ؛ لأن صوت الله جلَّ ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته»[1] .

ويتكلم الله ـ سبحانه ـ بصوت لا يشبه شيئاً من أصوات الخلق كما في الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله يا آدمُ ، فيقول: لبيك وسعديك. فيُنَادِي بصوت: إنّ الله يأمرك أن تخرج من أمتك بعثاً إلى النار)[2] .

وفي يوم القيامة يكلم الملائكة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[3] .

ويخاطب الكفرة المكذبين مقرِّعاً ومبكتاً ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4] .

ويسلم على أهل الجنة ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[5] .

ويكلمهم ، فعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ، فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون: يا رب ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحل عليكمُ رضواني ، فلا أسخطُ عليكم بعدهُ أبداً)[6] .

---

(١) خلق أفعال العباد : ص١٤٩ .

(٢) رواه البخاري: ١٣/ ٤٥٣ ، ورقمه: ٧٤٨٣ ، وانظر: ٨/ ٤٤١. رقم: ٤٧٤١، ورواه مسلم: ١/ ٢٠١ ، ورقمه: ٢٢٢. واللفظ للبخاري .

(٣) سورة سبأ: ٤٠ ـ ٤١ .

(٤) سورة النمل: ٨٣ ـ ٨٤ .

(٥) سورة يس: ٥٨ .

(٦) رواه البخاري: ١٣/ ٤٨٧ ، ورقمه: ٧٥١٨ ، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٧٦ ، ورقمه: ٢٨٢٩ ، واللفظ للبخاري.

كلام الله لا يحصى ولا يستقصى:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[1].

القرآن كلام الله حقيقة:

والقرآن كلام الله حقيقة لا شك في ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۖ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾[4].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية[5]: « يقول الله تعالى مخبراً عن عظمته، وكبريائه، وجلاله، وأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[6] فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾[7] أي ولو أنَّ جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً، وأمدَّه سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله تعالى الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسَّرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً ».

وقال الحسن البصري: «لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله تعالى: كان من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ماء البحر، وتكسَّرت الأقلام» وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[8].

---

(١) سورة الكهف: ١٠٩.
(٢) سورة التوبة: ٦.
(٣) سورة الفتح: ١٥.
(٤) سورة لقمان: ٢٧.
(٥) تفسير ابن كثير: ٥/ ٣٩٤.
(٦) رواه مسلم: ١/ ٣٥٣، ورقمه: ٤٨٦.
(٧) سورة لقمان: ٢٧.
(٨) سورة الإسراء: ٨٥.

١٤ـ محبة الله

جاء في الكتاب والسنة أنَّ الله تعالى يحب أفعالاً معينة ، كما يحب كلاماً معيناً ، ويحبُّ بعض خلقه الذين اتصفوا بصفات خاصة بيَّنها .

وما أخبرنا بذلك إلا لكي نبادر إلى الاتصاف بما يحبُّه من الأخلاق ، والقيام بالأعمال التي يحبها ، والإكثار من ذكر الكلام الذي يحبه ، وبذلك يحبنا سبحانه وتعالى .

والله تعالى يحبُّ المتقين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [١] ، ويحب المحسنين: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٢] ، ويحبّ التوابين والمتطهرين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [٣] ، ويحب الصابرين: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [٤] ، ويحب العادلين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [٥] ، ويحب المتوكلين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [٦] ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [٧] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم) [٨] .

وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: (أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله ، والحمدلله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرُّك بأيهن بدأت) [٩] .

وقال ﷺ لأشج عبدالقيس: (إنَّ فيك خَصلتين يُحبهما الله ، الحلمُ، والأناةُ) [١٠] .

---

(١) سورة التوبة: ٤.
(٢) سورة آل عمران: ١٣٤.
(٣) سورة البقرة: ٢٢٢.
(٤) سورة آل عمران: ١٤٦ .
(٥) سورة المائدة: ٤٢.
(٦) سورة آل عمران: ١٥٩.
(٧) سورة الصف: ٤.
(٨) رواه البخاري: ١١/٢٠٦ ، ورقمه: ١٤٠٦ ، ورواه مسلم: ٤/٢٠٧٢ . ورقمه: ٢٦٩٤.
(٩) رواه مسلم: ٣/ ١٦٨٥ . ورقمه: ٢١٣٧ .
(١٠) رواه مسلم في صحيحه: ١/٤٨. ورقمه: ١٧.

وعن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: (من أحبَّ لِقاء الله أحبَّ الله لقاءهُ ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءهُ) [1].

وجماع الأعمال والأخلاق والأقوال التي يحبها الله هو ما جاء به الرسول ﷺ ، وما اتصف به عليه السلام ، ولذا فقد بيَّن الله في آية جامعة أن السبيل إلى محبته هو اتباع الرسول ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [2].

١٥ـ ١٦ ـ كراهة الله وبغضه

هناك أعمال لا يحبها الله ، بل يكرهها ويبغضها ، وكراهيته وبغضه ـ سبحانه ـ حق على وجه يليق بذاته الكريمة، من هذه الأعمال الفساد ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ ، ولذا فإنَّه ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [4].

وجاء في النصوص أنَّه لا يحب: الكافرين ، والظالمين ، والمسرفين ، والمستكبرين، والمعتدين، والخائنين، والفرحين . ولا يحب كل مختال فخور، وكفَّار أثيم، وخوّان أثيم. وفي القرآن ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [5].

وسبق ذكر الحديث الذي فيه: (ومن كره لِقاء الله كره الله لقاءهُ) [6].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: (أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ) [7]، وعن البراء بن عازب أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول في الأنصار: (من أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله) [8].

---

(١) ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٦٥ ، ورقمه: ٢٦٨٤.
(٢) سورة آل عمران: ٣١ .
(٣) سورة البقرة: ٢٠٥.
(٤) سورة المائدة: ٦٤ .
(٥) سورة التوبة: ٤٦.
(٦) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٦٥. ورقمه: ٢٦٨٤ .
(٧) رواه البخاري: ١٣/ ١٨٠ . ورقمه: ٧١٨٨ ، ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٥٤ . ورقمه: ٢٦٦٨ .
والألد: شديد الخصومة. والخصم: الحاذق بالخصومة.
(٨) رواه البخاري: ٧/ ١١٣ ، ورقمه: ٣٧٨٣ ، ورواه مسلم: ١/ ٨٥ . ورقمه: ٧٥ .

١٧ـ رؤية الله

لا يُرى الله في الدنيا ، وقد طمع موسى في رؤية الله ، فأخبره ربُّه أنَّه لن يراه في الدُّنيا ، ولا يستطيع ذلك ، بل الجبل القويُّ الصلد لا يطيق ذلك ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾[1].

وقد اختلف العلماء في رؤية الرسول ﷺ ربَّه حين عُرج به إلى السماء ، والصحيح أنَّه لم ير ربَّه في المعراج، وقد صحَّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: و(من زعم أنّ محمداً ﷺ رأى ربَّه فقد أعظم على الله الفرية)[2].

هذا في الدنيا ، أمّا في الآخرة فالأمر مختلف ، فإنَّ العباد يخلقون خلقاً جديداً ، ألا ترى أنّ الشمس تدنو من رؤوس الناس في يوم القيامة حتى لا يكون بينها وبينهم إلا ميل واحد، ومع ذلك فلا يذوبون ولا ينصهرون ! ألا ترى أنَّ الناس بعد البعث والنشور غير قابلين للموت! بل يدخل الكفار النَّار كلما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب،أمَّا الموت فلا.

نعم في يوم القيامة يطيق المؤمنون رؤية ربهم ، بل إنَّ أعظم نعيم يعطاه العباد في الجنَّة هو النظر إلى وجه ربهم العظيم الكريم سبحانه .

هذا النعيم العظيم يحرمه الكفار ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾[3] أما الذين اصطفاهم الله وحسَّن وجوههم فلا يحجبون، ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴾[4] وهؤلاء هم الأبرار ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾[5]، وهذا النظر إلى وجهه الكريم هو الزيادة التي وُعد بها المؤمنون ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.
(٢) رواه مسلم: ١/١٥٩ . ورقمه: ١٧٧.
(٣) سورة المطففين: ١٥.
(٤) سورة القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
(٥) سورة المطففين: ٢٢ـ ٢٣.
(٦) سورة يونس: ٢٦.

وهو المزيد المذكور في هذه الآية: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [1].

وقد جاءت الأحاديث المتواترة مصرِّحة بذلك غاية التصريح، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: (هل تُضارُّونَ في رؤية القمر ليلة البدر؟) قالوا: لا يا رسول الله، قال: (هل تُضارُّون في رؤية الشمس ليس دُونها سحابٌ؟) قالوا: لا يا رسول الله، قال: (فإنَّكم ترونه كذلك) [2].

وفي الصحيح عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامّون، فإنْ استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا) [3].

وفي صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهلُ الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدُون شيئاً أزيدكم؟ يقولون: ألم تُبيضْ وُجُوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِنا مِنَ النَّار) ؟ قال: فيكشفُ الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزَّ وجلَّ، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا﴾ [4] [5].

وفي الصحيحين عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (جنَّتان من فضة آنيتُهُما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدنٍ) [6].

---

(١) سورة ق: ٣٥.
(٢) رواه البخاري: ١٣/٤١٩. ورقمه: ٧٤٣٧، ورواه مسلم: ١/١٦٣. ورقمه: ١٨٢. واللفظ لمسلم.
(٣) رواه البخاري: ١٣/٤١٩. ورقمه: ٧٤٣٤.
(٤) سورة يونس: ٢٦.
(٥) رواه مسلم: ١/١٦٣. ورقمه: ١٨١.
(٦) رواه البخاري: ١٣/٤٢٣. ورقمه: ٧٤٤٤. ورواه مسلم: ١/١٦٣. ورقمه: ١٨٠.

١٨ـ علم الله

ونعلم أن الله ـ سبحانه ـ متصف بصفة العلم، وقد سمى نفسه ـ سبحانه ـ بعدة أسماء تفيد هذه الصفة، منها (العليم) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]، ومنها: (الخبير) ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون. ومنها (الحكيم) ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف. ومنها: (الشهيد) ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر. ومعناه أنّه لا يغيب عنه شيء. ومنها (الحافظ) ويختص بأنّه لا ينسى ما علم. ومنها (المحصي) ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك عدد أجزاء الحركات في كل ورقة.

علمه تعالى شامل للكليات والجزئيات:

زعم الفلاسفة أنّ الله يعلم الكليات، ولا يعلم الجزئيات، وكذبوا في قولهم، فعلم الله محيط شامل لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، يعلم كل حركة في برٍّ أو بحر، فما من ورقة تسقط من شجرة، أو حبّة تندثر في الرمال، أو نبتة صغيرة تشق الأرض، أو نبتة تيبس أو تموت إلا وعلم الله محيط بها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

وهذه الأعداد التي لا حصر لها من الدواب لا يخفى على الله منها شيء ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3]، وليس من شيء يصل إلى الأرض، أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا وقد أحاط الله به علماً ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾[4].

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢٠.
(٢) سورة الأنعام: ٥٩.
(٣) سورة هود: ٦.
(٤) سورة سبأ: ٢.

وهذا الإنسان لا يخفى على الله منه شيء ، فعلم الله به محيط يعلم عمله البادي الظاهر، ويعلم ما استكن في أعماق نفسه، ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾[1]، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾[2]، وهو علم محيط بالجزئيات من أمور الإنسان ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[3].

وانظر إلى هذا العلم الذي لا تفلت منه الذرة الصغيرة ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[4]..

لقد استوى في علم الله السرُّ والعلانية، والصغير والكبير ، والغيب والشهادة: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[5].

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[6].

---

(١) سورة آل عمران: ٢٩.
(٢) سورة الأنعام: ٣.
(٣) سورة يونس: ٦١.
(٤) سورة لقمان: ١٦.
(٥) سورة الرعد: ٨ ـ ١٠.
(٦) سورة يونس: ٦١.

١٩، ٢٠ ـ حياته وقيوميته سبحانه

وهو حيٌّ حياة أزلية ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [١] وحياته منافية لحياة الأحياء من الخلق فكلهم يموت ويفنى ، ولا يبقى إلا الله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [٢].

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: (أعوذ بعزَّتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجنُّ والأنسُ يموتون)[٣].

ومن كان كذلك فهو الذي يستحق أن يعتمد عليه ويتوكل عليه ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[٤].

وهو قيوم سبحانه، فهو قيوم بنفسه مقيم لغيره ، وجميع المخلوقات مفتقرة إليه، ولا قوام لها بدونه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [٥].

جمعه ـ سبحانه ـ بين هذين الاسمين:

وقد جمع ـ سبحانه ـ في أكثر من آية بين هذين الاسمين ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [٦].

من تمام حياته وقيوميته:

ومن تمام حياته وقيوميته ـ سبحانه ـ أنَّه لا ينام ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [٧] والسنة: أوائل النوم، والسنة والنوم نقص يتنزه الخالق عنهما ، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: (إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النَّهار قبل عمل الليل) [٨].

---

(١) سورة غافر: ٦٥ .
(٢) سورة الرحمن: ٢٦ـ ٢٧.
(٣) رواه البخاري: ١٣/٣٦٨ . ورقمه: ٧٣٨٣.
(٤) سورة الفرقان: ٥٨ .
(٥) سورة الروم: ٢٥.
(٦) سورة آل عمران: ٢.
(٧) سورة البقرة: ٢٥٥.
(٨) رواه مسلم: ١/١٦٢ . ورقمه: ١٧٩.

تمجيده تعالى بذكر حياته وقيوميته:

وقد مجَّد نفسه ـ سبحانه ـ بوصف نفسه بالحياة والقيومية ، كما سبق في النصوص التي ذكرناها ، وقد كان الرسول ﷺ يمجد ربَّه بذكر هذه الصفات ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: (اللهمَّ لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمدُ ، لك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نُور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض . . .)[1].

٢١ ، ٢٢ـ سمعه وبصره ـ سبحانه ـ وتعالى

وهاتان الصفتان ثابتتان لله تعالى بنصِّ القرآن ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[3].

وقال لموسى وهارون: ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[4].

عظم سمع الله وبصره:

يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾[5]، قال ابن جرير: « وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنَّه قيل: ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه من ذلك شيء »[6].

وهو يسمع ويرى الصالحين، فيثيبهم ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[7].

---

(١) رواه البخاري: ٣/٣. ورقمه: ١١٢٠ . ورواه مسلم: ١/٥٣٢ . ورقمه: ٧٩٩ . واللفظ للبخاري.
(٢) سورة الشورى: ١١.
(٣) سورة الحج: ٦١ .
(٤) سورة طه: ٤٦.
(٥) سورة الكهف: ٢٦.
(٦) تفسير ابن جرير: ١٥/ ٢٣٢.
(٧) سورة الشعراء: ٢١٨ـ ٢٢٠.

وهو - سبحانه - يرى الطالحين فيجزيهم ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (١).

تقول عائشة - رضي الله عنها - مبينة سعة سمع الله: « الحمدلله الذي وسع سمعه الأصوات » (٢)، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه في جانب البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (٣)(٤).

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: كنّا مع النبي ﷺ في سفر، فكنَّا إذا علونا كبرنا، فقال: (أربعُوا على أنفُسِكُمْ، فإنَّكُم لا تدْعُونَ أصمَّ ولا غائِباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً)(٥).

جهل المشركين بنفاذ سمع الله:

روى البخاري في صحيحه عن عبدالله - رضي الله عنه - قال: اجتمع عند البيت (الكعبة) ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، كثيرةٌ الشحم بطونُهم، قليلة فقه قلوبُهم، فقال أحدهم: أترون أنَّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنَّه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله، عزَّ وجلَّ، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٦)(٧).

---

(١) سورة آل عمران: ١٨١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً: ١٣/٣٧٢: وقال ابن حجر في الفتح: ١٣/٣٧٣. « ووصله أحمد والنسائي وابن ماجة باللفظ المذكور هنا ».

(٣) سورة المجادلة: ١.

(٤) هذه التكلمة رواها أحمد والنسائي وابن ماجة، كما أفاده الحافظ في الفتح: ١٣/٣٧٤.

(٥) رواه البخاري: ١٣/٣٧٢. ورقمه: ٧٣٨٦.

(٦) سورة فصلت: ٢٢.

(٧) رواه البخاري: ٨/٥٦٢. ورقمه: ٤٨١٧.

المطلب الثالث

أسماء الله الحسنى (١)

لله تعالى أسماء كلها حسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (٢) منها ما ذكره الله في سورة الحشر ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (٣).

١ـ عدد أسمائه

ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وإن الله وِتْرٌ يُحبُّ الوتر) (٤).

هذا الحديث يدل على أنَّ لله ـ سبحانه ـ عدداً محدداً من الأسماء وقد نصَّ على أنَّها تسعة وتسعون .

ولكن يشكل على هذا ما رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:

(ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدُك ، ابن عبدِك، ابن أمتِك ؛ ناصيتي بيدك ، ماض فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو علمْتَهُ أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أنْ تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونُورَ صدري ، وجلاء حُزني ، وذهاب همي ، إلا

---

(١) ألفت في أسماء الله وصفاته مؤلفا مستقلاً عنونت له بـ (أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة) فإن شئت التوسع في الموضوع فارجع إليه .

(٢) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٣) سورة الحشر: ٢٢ـ٢٤ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه: ١١/ ٢١٤ . ورقمه: ٦٤١٠ ، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٦٢، ورقمه: ٢٦٧٧، واللفظ لمسلم .

أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً)[1].

وجاء في ثناء الرسول على ربه سبحانه (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[2]. والإشكال في هذا الحديث أنَّه يدلُّ على أنَّ من أسماء الله تعالى أسماء لم ينزلها في كتابه ، بل اختص بها بعض عباده ، أو اختص بها نفسه ، فلم يعرِّفها أحداً من خلقه ، بينما حديث أبي هريرة يدلُّ على أن أسماء الله التسعة والتسعين كلها منزلة معروفة بدلالة قوله (من أحصاها) ، فالإحصاء لها لا يمكن ما لم تكن منزلة معروفة معلومة ، ومن هذا ينتج أنَّ ما استأثر الله بعلمه أو اختص به بعض خلقه غير التسعة والتسعين .

والحق الذي ينبغي أن يصار إليه أنَّ عدد الأسماء التي عرَّفنا الله إياها في كتابه ، أو ذكرها رسوله ﷺ ، تسعة وتسعون لا تزيد ، لنصِّ الرسول ﷺ على هذا العدد ، ولقوله: (مَنْ أحصاها) ، وأنَّ ما زاد على هذه التسعة والتسعين فهو مما لا نعرفه ، لأنَّه من مكنون علم الله أو مما اختص الله به بعض خلقه ، وإلا فما فائدة تحديد عدد أسماء الله بتسعة وتسعين ؟!

٢ـ تحديد أسماء الله الحسنى

أخبر الرسول ﷺ أنَّ أسماء الله تعالى المنزلة التي يمكننا معرفتها وإحصاؤها تسعة وتسعون اسماً .

ولم يرد حديث صحيح يسرد هذه الأسماء سرداً لا يترك مجالاً للخلاف في تحديدها ، بل وردت هذه الأسماء متفرقة في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ ، تذكر الآية الاسم والاسمين أو أكثر ، أو تختم الآية بواحد أو أكثر ، وقد تسرد الآيات جملة من هذه الأسماء .

وقد عني العلماء بجمع أسماء الله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما

---

(١) رواه أحمد في مسنده: ١/٣٩١ ، وعزاه ابن حجر في فتح الباري إلى أحمد وابن حبان ، فتح الباري: ١١/٢٢٠.

(٢) صحيح مسلم: ١/٣٥٣، ورقمه: ٤٨٦ .

عنوا بتفسيرها وشرحها.

فالقرطبي له كتاب (معاني أسماء الله الحسنى) ، وقد سردها ابن جرير الطبري ، وأبو بكر ابن العربي ، وابن حجر العسقلاني ، وغيرهم . وقد اتفق العلماء في عدّ جملة كبيرة من أسماء الله تعالى ، واختلفوا في جملة قليلة ، فبعضهم عدّها من أسمائه تعالى ، ومنهم من نازع في ذلك [1].

والسبب في هذا الخلاف أن بعض العلماء ظن أنّ كلّ ما أطلقه القرآن على الله ـ سبحانه ـ يجوز عده اسماً ، ويجوز إطلاقه مجرداً على الله تعالى. فأبو بكر ابن العربي عدّ في أسمائه: رابع ثلاثة ، وسادس خمسة، أخذاً من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [2].

كما عدّ في أسمائه الفاعل والزارع أخذاً من قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [3].

ومن قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ﴾ [4].

والحق أن هذه ليست أسماء لله تعالى ، بمعنى أنّه لا يطلق على الله تعالى رابع ثلاثة ، وسادس خمسة ، والفاعل ، والزارع [5].

وقد ورد في القرآن أفعال أطلقها الله ـ عزّ وجلّ ـ على نفسه على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة ، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال ، ولكن لا يجوز أن يشتق لله تعالى منها أسماء ، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات كقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [6]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [7] وقوله: ﴿نَسُوا۟ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [8]، وقوله ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

---

(١) راجع تلخيص الحبير: ٤/ ١٧٢.
(٢) سورة المجادلة: ٧.
(٣) سورة الأنبياء: ١٠٤ .
(٤) سورة الواقعة: ٦٣ـ ٦٤ .
(٥) معارج القبول: ١/ ٧٧.
(٦) سورة النساء: ١٤٢ .
(٧) سورة آل عمران: ٥٤.
(٨) سورة التوبة: ٦٧ .

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝١٤ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1].

فلا يطلق على الله مخادع ، ماكر ، ناس ، مستهزئ، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه ، ولا يقال: الله يستهزئ ، ويخادع ، ويمكر ، وينسى ، على سبيل الإطلاق . وقد أخطأ الذين عدوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأ كبيراً، لأنّ الخداع والمكر يكون مدحاً ويكون ذماً ، فلا يجوز أن يطلق على الله إلا مقيداً بما يزيل الاحتمال المذموم منه كما ورد مقيداً في الآيات [2] .

ومن أجل ذلك لم يرد في أسمائه تعالى: المتكلم ، المريد ، الفاعل، الصانع ؛ لأنّ مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم . ولو جاز أن يشتق لله من أفعاله أسماء مثل: الماكر ، المخادع ، بحجة إطلاق أفعالها في القرآن على الله لجاز أن يجعل من أسمائه: الداعي ، والآتي ، والجائي، والذاهب، والقادم ، والناسي ، والقاسم ، والساخط ، والغضبان ، واللاعن . . . وغير ذلك من تلك التي أطلق القرآن أفعالها على نفسه .

فالله لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، والمجازاة على ذلك تعدّ حسنة من المخلوق فكيف من الخالق ؟ .

ومن أسماء الله تعالى ما لا يُطلق عليه إلا مقترناً بمقابله ، فإنه إذا أطلق وحده أوهم نقصاً ، فمن ذلك: المانع ، الضار ، القابض ، المذل، الخافض، فلا تطلق على الله منفردة ، بل يجب قرنها بما يقابلها، فيقال: المعطي المانع ، الضارُّ النافع ، القابض الباسط ، المعزُّ المذل ، الخافض الرافع.

ومن ذلك المنتقم ، لم يأت في القرآن إلا مضافاً إلى: (ذو) كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [3] أو مقيداً بالمجرمين: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [4] .

---

(١) سورة البقرة: ١٤ـ ١٥ .
(٢) معارج القبول: ١/ ٧٦ .
(٣) سورة المائدة: ٩٥.
(٤) سورة السجدة: ٢٢.

٣ـ الاسم الأعظم

أخبرنا الرسول ﷺ في أكثر من حديث أنَّ لله اسماً أعظم له مميزات عن بقية أسمائه سبحانه وتعالى ، فمن هذه الأحاديث:

١ـ عن بريدة الأسلمي ، أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللهمَّ إني أسألك بأنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ، فقال: (دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعِي به أجاب) . رواه الترمذي وأبو داود[(١)] .

٢ـ وعن أنس قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي، فقال: « اللهمَّ إني أسألك بأنَّ لك الحمد ، لا إله إلا أنت الحنان المنان ، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم ، أسألك » فقال النبي ﷺ: (دعا الله باسمِه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئلَ به أعطى) . رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة والدارمي[(٢)] .

٣ـ وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: (اسمُ الله الأعظم في سُور من القرآن ثلاث: في (البقرة) ، وَ (آل عمران) وَ (طه) . أخرجه ابن ماجة ، والطحاوي في مشكل الآثار، وابن معين في التاريخ والعلل ، وغيرهم[(٣)] .

٤ـ وقد ورد تحديد آيتي البقرة وآل عمران اللتين ورد فيهما اسم الله الأعظم ، فقد روى الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والدارمي عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[(٤)] وفاتحة

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/٧٠٣ ، ورقمه: ٢٢٨٩ ، وحكم محقق المشكاة على إسناده بالصحة.
(٢) مشكاة المصابيح: ١/٧٠٤ ، ورقمه: ٢٢٩٠ ، وحكم محقق المشكاة على إسناده بالصحة.
(٣) انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ ناصر الدين الألباني: ٢/٣٨٢ ، ورقمه: ٧٤٦.
(٤) سورة البقرة: ١٦٣.

(آل عمران): ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [1])[2].

والذي يظهر من المقارنة بين النصوص التي ورد فيها اسم الله الأعظم أنَّه: (الله) ، فهذا الاسم هو الاسم الوحيد الذي يوجد في جميع النصوص التي قال الرسول ﷺ إنَّ اسم الله الأعظم ورد فيها.

ومما يرجح أن (الله) هو الاسم الأعظم أنه تكرر في القرآن الكريم (٢٦٩٧) سبعا وتسعين وستمائة وألفين (حسب إحصاء المعجم المفهرس) وورد بلفظ (اللهم) خمس مرات في حين أنَّ اسماً آخر مما يختص بالله تعالى وهو (الرحمن) لم يرد ذكره إلا سبعاً وخمسين مرة ، ويرجحه أيضاً ما تضمنه هذا الاسم من المعاني العظيمة الكثيرة .

٤ـ وجوب الإيمان بأسمائه

وقد اتفق السلف الصالح على أنه يجب الإيمان بجميع أسماء الله الحسنى، وما دلت عليه من الصفات ، وما ينشأ عنها من الأفعال ، فمثلاً: اسم الله القدير يجب الإيمان بأنَّه سبحانه على كل شيء قدير ، والإيمان بكمال قدرته، والإيمان بأنَّ قدرته نشأت عنها جميع الكائنات.

٥ـ كيف يحصي المسلم أسماء الله الحسنى [3]

ورد في الحديث الترغيب بإحصاء أسماء الله الحسنى ، فقد وعد من أحصاها بدخول الجنة.

واختلف العلماء في معنى قوله ﷺ « من أحصاها » .

قال الخطابي يحتمل وجوهاً:

أحدها: أن يعدَّها حتى يستوفيها بمعنى أن لا يقتصر على بعضها فيدعو الله بها كلها ، ويثني عليه بجميعها ، فيستوجب الموعود عليها من الثواب.

---

(١) سورة آل عمران: ١ـ٢ .

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٤ ، ورقمه: ٢٢٩١.

(٣) راجع في هذا الموضوع: معارج القبول: ١/ ٨٤ . وما بعدها.

وهذا الوجه هو الذي اختاره البخاري ، فقد فسَّر الإحصاء بالحفظ ، وذلك لورود رواية أخرى فيها « من حفظها » .

ثانيها: المراد بالإحصاء الإطاقة ، والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها ، وهو أن يعتبر معانيها ، فيلزم نفسه بموجبها، فإذا قال: « الرزّاق » وثق بالرزق ، وكذا سائر الأسماء .

ثالثها: المراد بها الإحاطة بجميع معانيها.

وقيل: أحصاها عمل بها ، فإذا قال « الحكيم » سلم لجميع أوامره وأقداره ، وأنها جميعها على مقتضى الحكمة .

وقال ابن بطال: طريق العمل بها:

١ـ ما يسوغ الاقتداء به كالرحيم والكريم ، فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها ، يعني فيما يقوم به .

٢ـ وما كان يختص به نفسه كالجبار والعظيم ، فعلى العبد الإقرار بها ، والخضوع لها ، وعدم التحلي بصفة منها .

٣ـ وما كان فيها معنى الوعد يقف فيه عند الطمع والرغبة .

٤ـ وما كان فيها معنى الوعيد يقف منه عند الخشية والرهبة .

والظاهر أنَّ معنى إحصائها حفظها ، والقيام بعبوديتها كما أنَّ القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به ، بل جاء في صفة المراق من الدِّين أنهَّم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم[1] .

٦ـ سرد أسماء الله تعالى

ولعلَّ ابن حجر العسقلاني قد قارب الصواب عندما عدَّ تسعة وتسعين اسماً آخذاً إياها من القرآن الكريم ، وبذلك يوافق حديث أبي هريرة في عددها ، ونحن نسوقها كما سردها:

---

(١) تبين لنا بعد أن توسعنا في دراسة هذا الموضوع في كتابنا (أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة) أن القول الراجح في معنى (أحصاها) حفظها .

١ـ الله	٢ـ الرب	٣ـ الإله	٤ـ الواحد	٥ـ الرحمن
٦ـ الرحيم	٧ـ الملك	٨ـ القدوس	٩ـ السلام	١٠ـ المؤمن
١١ـ المهيمن	١٢ـ العزيز	١٣ـ الجبار	١٤ـ المتكبر	١٥ـ الخالق
١٦ـ البارئ	١٧ـ المصور	١٨ـ الأول	١٩ـ الآخر	٢٠ـ الظاهر
٢١ـ الباطن	٢٢ـ الحي	٢٣ـ القيوم	٢٤ـ العليّ	٢٥ـ العظيم
٢٦ـ التواب	٢٧ـ الحليم	٢٨ـ الواسع	٢٩ـ الحكيم	٣٠ـ الشاكر
٣١ـ العليم	٣٢ـ الغني	٣٣ـ الكريم	٣٤ـ العفو	٣٥ـ القدير
٣٦ـ اللطيف	٣٧ـ الخبير	٣٨ـ السميع	٣٩ـ البصير	٤٠ـ المولى
٤١ـ النصير	٤٢ـ القريب	٤٣ـ المجيب	٤٤ـ الرقيب	٤٥ـ الحسيب
٤٦ـ القوي	٤٧ـ الشهيد	٤٨ـ الحميد	٤٩ـ المجيد	٥٠ـ المحيط
٥١ـ الحفيظ	٥٢ـ الحقّ	٥٣ـ المبين	٥٤ـ الغفّار	٥٥ـ القهار
٥٦ـ الخلاق	٥٧ـ الفتاح	٥٨ـ الودود	٥٩ـ الغفور	٦٠ـ الرؤوف
٦١ـ الشكور	٦٢ـ الكبير	٦٣ـ المتعال	٦٤ـ المقيت	٦٥ـ المستعان
٦٦ـ الوهاب	٦٧ـ الحفي	٦٨ـ الوارث	٦٩ـ الولي	٧٠ـ القائم
٧١ـ القادر	٧٢ـ الغالب	٧٣ـ القاهر	٧٤ـ البر	٧٥ـ الحافظ
٧٦ـ الأحد	٧٧ـ الصمد	٧٨ـ المليك	٧٩ـ المقتدر	٨٠ ـ الوكيل
٨١ ـ الهادي	٨٢ ـ الكفيل	٨٣ ـ الكافي	٨٤ ـ الأكرم	٨٥ ـ الأعلى
٨٦ ـ الرزاق	٨٧ ـ ذو القوة المتين		٨٨ ـ غافر الذنب	
٨٩ ـ قابل التوب	٩٠ـ شديد العقاب		٩١ـ ذو الطول	
٩٢ـ رفيع الدرجات	٩٣ـ سريع الحساب		٩٤ـ فاطر السموات والأرض	
٩٥ـ بديع السموات والأرض	٩٦ـ نور السموات والأرض			
٩٧ـ مالك الملك	٩٨، ٩٩ ـ ذو الجلال والإكرام			

٧ـ خواص أسماء الله الحسنى

ذكر الشيخ حسن البنا في كتابه: (العقائد) [١] ، أن بعض النَّاس يذكر لكلٍّ اسم من أسماء الله تعالى خواصَّ وأسراراً تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجاز ، وقد يغالي بعض الناس فيتجاوز هذا القدر إلى زعم أن لكل اسم خادماً روحانيّاً يخدم من يواظب على الذكر به .

ويذكر أن بعض النَّاس يدعى أن اسم الله الأعظم سرٌّ من الأسرار ، يمنح لبعض الأفراد، فيفتحون به المغلقات ، ويخرقون به العادات ، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس.

وهؤلاء الذين أشار إليهم الشيخ قالوا بغير علم ، ونطقوا بأمور لم يأت بها نص صحيح من كتاب ربنا ، وسنة رسوله ﷺ ، وما كان كذلك فلا اعتبار له ، ولا حجّة فيه ؛ عملاً بقول الرسول ﷺ: (كُلُّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ) .

وهذه الأقوال والادعاءات فتحت الباب للخرافة ، فبذلت الجهود وضاعت الساعات في سبل خاطئة ، وحصل من ذلك ضلال كبير .

والفضيلة التي نصَّ عليها الرسول ﷺ لاسم الله الأعظم أنه إذا دعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى .

٨ ـ فائدة العلم بهذه الأسماء

أمّا الفوائد الحقيقية التي يجنيها المسلم من هذه المعرفة بأسماء الله وصفاته فيمكن أن نوجزها في عدة أمور:

١ـ التعرف على الله سبحانه وتعالى،فأسماء الله وصفاته هي أعظم وسيلة تعرفنا بربنا سبحانه وتعالى ، وبدون ذلك سيبقى الإيمان بالله فكرة غامضة لا تعطي ثماراً طيبة ، وقد فصَّلنا القول في صفاته وأسمائه فيما سبق ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) مجموع الرسائل: ٤٤٤ـ٤٤٧، والشيخ البنا رحمه الله ذكر هذا منكراً له .

٢ـ تمجيده والثناء عليه بأسمائه وصفاته ، وتمجيد الله بأسمائه وصفاته أعظم ما نمجد الله به ونثني عليه به ، وهو من أعظم الذكر الذي أمرنا به في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾[1].

٣- دعاؤه بأسمائه وصفاته، كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[2]. وقد أخبر الرسول ﷺ أكثر من مرة أنَّ واحداً من الصحابة دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أجاب.

٤ـ زيادة الإيمان: فكلما علم العبد شيئاً عن الله وصفاته ازداد إيمانه.

٥ـ الشعور بالقوة والثبات؛ لأن العبد يركن إلى القوي القادر الغالب .

٦ـ تعليق القلب بالله ، فالذي يعلم أن الرزق من عند الله يطلب منه الرزق، والذي يعلم أن الله جبار يخاف منه ، والذي يعلم أن الله عليم يراقبه... وهكذا .

٧ـ الأجر العظيم الذي نحصله من وراء هذه المعرفة ، فتعلم هذه الأسماء والصفات أشرف ما يمكن أن يدرس ، وتعلمها وتعليمها خير عمل يقام به .

نماذج من تمجيد الرسول عليه السلام لربه وثنائه عليه ودعائه له:

أحب أن نسوق نماذج من الكلام النبوي فيه تمجيد وثناء وحمد الله بأسمائه وصفاته ، ودعاء له بها علاوة على ما تقدم:

١ـ عن أبي هريرة: أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال لرسول الله ﷺ: « مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال: (قل: اللهم عالمَ الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ، ربَّ كلِّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر

---

(١) سورة الأحزاب: ٤١.
(٢) سورة الأعراف: ١٨٠ .

الشيطان وشركه) . رواه الترمذي وأبو داود والدارمي [1].

٢ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: (ربَّنا لك الحمدُ ، ملءُ السموات والأرض، ومِلءُ مَا شِئْتَ من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحقُّ ما قال العبدُ، وكُلُّنا لك عبدٌ ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ) [2].

٣ـ عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً ، وقال: (اللهم أنت السلامُ ، ومنكَ السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام) [3].

٤ـ عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرشِ العظيم ، لا إله إلا اللهُ ربُّ السموات وربُّ الأرض ، ربُّ العرش الكريم) [4].

٥ـ عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبُّ الكلام إلى الله أربعٌ: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت) وفي وجه آخر: (أفضلُ الكلام: سُبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) [5].

٦ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمنِ: سبحان الله وبِحمدِهِ، سُبْحانَ الله العظيم) [6].

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٣٤ . ورقمه: ٢٣٩٠ .
(٢) رواه مسلم: ١/ ٣٤٧. ورقمه: ٤٧٧ .
(٣) رواه مسلم: ١/ ٤١٤ . ورقمه: ٥٩٢ .
(٤) صحيح البخاري: ١١/ ١٤٥. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٩٣. ورقمه: ٢٧٣٠.
(٥) رواه مسلم. انظر مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٦ ، ورقمه: ٢٢٩٤.
(٦) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٧٢ ، ورقمه: ٢٦٩٤ .

المطلب الرابع

المنهج الذي تفهم صفات الله في ضوئه [1]

ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - أن القرآن العظيم دلَّ على أن مبحث الصفات يرتكز على ثلاثة أسس ، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب ، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي - ﷺ - وأصحابه والسلف الصالح ، ومن أخلَّ بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلَّ .

وذكر أنَّ كلَّ هذه الأسس الثلاثة يدلُّ عليها القرآن العظيم:

الأساس الأول: تنزيهه - جلَّ وعلا - عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [2]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [3] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [4].

الأساس الثاني: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه ، لأنَّه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [5].

والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ لأنَّه لا أعلم بالله بعد الله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقِّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [6].

---

(١) راجع: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله .
(٢) سورة الشورى: ١١.
(٣) سورة الإخلاص: ٤ .
(٤) سورة النحل: ٧٤.
(٥) سورة البقرة: ١٤٠ .
(٦) سورة النجم: ٣-٤.

ضلال الذين أخذوا بأحد هذين الأصلين دون الآخر:

وقد حمل الشيخ ـ رحمه الله ـ تعالى على من أخلَّ بأحد هذين الأصلين، وعدّ من نفى عن الله وصفا أثبته لنفسه بأنه متنطع بين يدي رب السموات والأرض ، وعدّ فعل هذا النافي عن الله ما أثبته لنفسه متجرئا على الله جرأة عظيمة .

وعدّ الشيخ هذا ضلالا ليس بعده ضلال ، لأن هذا النافي عمد إلى ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال والجلال، فتقدم هذا الجاهل المسكين بين يدي جبار السموات والأرض قائلا: هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك، ويلزمه من النقص كذا ، فأنا أؤوله وأنفيه ، وآتي ببدله من تلقاء نفسي ، من غير أن يستند فيما ذهب إليه إلى كتاب ولا سنة .

ومثله في الضلال ذلك الذي أثبت الصفات لله ـ تبارك وتعالى ـ ولكنه شبه صفات الباري بصفات خلقه .

والمفلح الناجي السائر على الصراط المستقيم هو الذي آمن بهذين الأصلين، ولم يفرق بينهما ، آمن بما أثبته الله لنفسه من الصفات ، ونزهه في الوقت نفسه عن أن تشبه صفاته صفات خلقه ، فهو مؤمن منزه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل .

دلت على هذا الأصل آية من كتاب الله :

وقد دلَّ على هذين الأصلين آية من كتاب الله، هي قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (١).

فالحق يثبت في هذه الآية لنفسه السمع والبصر في الوقت الذي يقرر فيه أنه ليس كمثله شيء، وفي هذا إشارة واضحة إلى أنه لا يجوز للخلق أن ينفوا عن الله سمعه وبصره بدعوى أن المخلوقات الحادثة تملك سمعا وأبصارا،

---

(١) سورة الشورى: ١١ .

وأن إثبات السمع والبصر لله يؤدي إلى تشبيه الله بمخلوقاته .

إن المعنى الذي تدل الآية عليه أن الله يتصف بالسمع والبصر ، وسمع الله وبصره لا يشبهه شيء من أسماع المخلوقات وأبصارها ، فسمع الله وبصره يليقان بجلال الله وكماله، وأسماع المخلوقات وأبصارها تناسب حالهم ، فلا تشابه بين صفات الله وصفات المخلوقات.

والأساس الثالث: الذي ترتكز عليه مباحث الصفات ـ كما يقول الشيخ الشنقيطي ـ **قطع الأطماع عن إدراك حقيقة الكيفية** ، لأنَّ إدراك حقيقة الكيفية مستحيل. وهذا نص الله عليه في سورة (طه) حيث قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[1] فقوله: (يحيطون) فعل مضارع، والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضي ينحلُّ عند النحويين عن (مصدر ، وزمن).

وقد حرَّر علماء البلاغة في بحث الاستعارة التبعية أنَّه ينحلُّ عن (مصدر، وزمن ، ونسبة) فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً ، (فيحيطون) تكمن في مفهومها (الإحاطة) ، فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل ، ويكون معه كالنكرة المبنية على الفتح ، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري بربِّ السموات والأرض .

فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها ، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن ربِّ العالمين .

وهذا الذي ذكره الشيخ العلامة من استحالة معرفة كيفية الله أو صفاته منطق سليم ؛ لأنَّ العقل الإنساني مهما بلغ من الذكاء وقوة الإدراك قاصر غاية القصور وعاجز نهاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء .

إنّ الإنسان عاجز عن معرفة حقيقة الروح التي تتردد بين جنبيه ، وعاجز عن معرفة حقيقة الضوء الذي هو من أظهر الأشياء ، وعاجز عن إدراك حقيقة المادة ، وحقيقة الذرات التي تتألف منها المادة ، فكيف يطمح إلى معرفة حقيقة الذات والصفات الإلهية ؟

---

(١) سورة طه: ١١٠ .

المنحرفون عن المنهج السليم وأسباب انحرافهم

والانحراف عن المنهج السليم في أسماء الله تعالى وصفاته قد جاء من الإخلال بأصل من الأصول الثلاثة التي ذكرناها ، ونستطيع أن نقسم انحراف الناس قديماً وحديثاً في أسماء الله وصفاته إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: انحراف المشركين:

وانحراف المشركين ، ذكره ابن عباس وابن جريج ، ومجاهد ، فالمشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا ، فاشتقوا اللات من الله ، والعزّى من العزيز ، ومناة من المنان .

ومن إلحادهم تكذيبهم بجملة من أسماء الله تعالى ، كتكذيبهم باسم الرحمن ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ (١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ (٢).

ويدخل في زمرة هؤلاء الذين يصفون الله بصفات النقص ، كقول خبثاء اليهود ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ (٣)، وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ (٤).

ثانياً: انحراف المشبهة:

وهؤلاء أثبتوا لله ما أثبته لنفسه ، ولكنّهم لم ينزهوا الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، فأعملوا من الآية الكريمة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (٥) عجزها، ولم يعملوا صدرها، إذ لو أعملوا صدرها لعلموا أنّ الله لا يشبهه شيء ، ولما اجترؤوا على أن يقولوا قولتهم التي تقشعرُّ لهولها الأبدان، وتضطرب لها القلوب: إنَّ لله يداً وبصراً وسمعاً كيدنا وسمعنا وبصرنا ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) سورة الرعد: ٣٠ .
(٢) سورة الفرقان: ٦٠.
(٣) سورة آل عمران: ١٨١ .
(٤) سورة المائدة: ٦٤ .
(٥) سورة الشورى: ١١.

وهؤلاء جعلوا معبودهم كالأصنام ، ولذا قال علماء السلف (المشبه يعبد وثناً) ، وقد كفروا بمقالتهم هذه وخرجوا عن الملّة، ومن هؤلاء داود الجواربي ، وهشام بن الحكم الرافضي ، وهذان الفريقان إلحادهما متقابل: فالأولون من المشركين جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق وسووه به ، والمشبهة جعلوا الخالق بمنزلة الأجسام المخلوقة ، وشبهوه بها ، تعالى الله وتقدس عن إفكهم وضلالهم .

ثالثاً: انحراف النفاة وهم ثلاث فرق:

١ـ فريق نفوا الأسماء وما تدلُّ عليه من المعاني ، ووصفوا الله تعالى بالعدم المحض ، وهؤلاء هم الجهمية ، والحقيقة أنَّ تحريف هؤلاء تكذيب لله كتحريف المشركين .

٢ـ وفريق أثبتوا ألفاظ أسمائه دون ما تضمنته من صفات الكمال ، فقالوا: رحمن رحيم بلا رحمة ، حكيم بلا حكمة ، قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع . . الخ ، وهؤلاء هم المعتزلة .

٣ـ وفريق ثالث: أثبت سبعاً من صفات المعاني ، وهي: الحياة ، والعلم، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، ونفوا ، ما عداها ، وهؤلاء هم الأشاعرة [1].

والمكذبون بأسماء الله وصفاته ، والمشبهون صفاته بصفات خلقه ، والنافون لأسمائه وصفاته ـ ضلالهم واضح ، إذ هم مشاقون لله ورسوله، مكذبون للكتاب والسنة ، وأمرهم معلوم لا يحتاج إلى بيان .

أمَّا الذين يحتاج إلى كشف ما في مقالتهم من زيف ، فهم أهل الكلام الذي يزعمون أنَّهم ينزهون الله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، وبهذا ينفون صفات الله تعالى التي وردت في الكتاب والسنة ،بحجة أنَّها توهم التشبيه ، ويلجؤون في سبيل ذلك إلى تأويل هذه الصفات تأويلاً يصرفها عن معانيها الحقة [2].

---

(١) لم يذهب أبو الحسن الأشعري رحمه الله هذا المذهب كما سيأتي ذكر معتقده في صفات الباري تبارك وتعالى .

(٢) حاول بعض المعاصرين كالشيخ حسن البنا والشيخ حسن أيوب وغيرهما أن يهونوا من خطيئة

المطلب الخامس

أقسام الصفات عند علماء الكلام

بين الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ منهج علماء الكلام في تقسيماتهم لصفات الله تعالى ، وبيان ما أثبتوه منها وما نفوه ، وما وقعوا فيه من أخطاء ومغالطات ، ثم بيّن دلالة القرآن على اتصاف الله بهذه الصفات ، وعدم جواز نفيها عن الله بحجة أن المخلوقين يتصفون بها ؛ لأنَّ صفات الله لائقة بجلاله وصفات المخلوقين مناسبة لعجزهم .

فقد بيَّن الشيخ أنَّ المتكلمين الذين خاضوا في الكلام ، وجاؤوا بأدلة يسمونها أدلة عقلية ، ركبوها في أقيسة منطقية ، قسموا صفات الله إلى ستة أقسام هي:

١ـ صفة نفسية . ٢ـ صفة معنى . ٣ـ صفة معنوية .

٤ـ صفة فعلية . ٥ـ صفة سلبية . ٦ـ صفة جامعة .

أما الصفات الإضافية ، فقد جعلوها أموراً اعتبارية لا وجود لها في الخارج ، وسببوا بذلك إشكالات عظيمة

محاكمة المنهج الكلامي إلى الكتاب والسنة

بين الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ ما جاء في القرآن العظيم من وصف الخالق ـ جلَّ وعلا ـ بتلك الصفات ، ووصف المخلوقين بتلك الصفات ، وبيان القرآن العظيم أنَّ صفة خالق السموات والأرض حق ، وأنَّ صفة المخلوقين حقّ ، وأنه لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق، فصفة الخالق لائقة بذاته ، وصفة المخلوق مناسبة لعجزه وافتقاره ، وبين الصفة والصفة من الفرق كمثل ما بين الذات والذات .

هؤلاء الذين عرفوا باسم (الخلف) ، وأن يقربوا بين وجهة نظر السلف والخلف ، ولكنَّ الحقيقة التي يجب أن تدرك أن مذهب الخلف الزاعمين أن ظاهر الصفات غير مراد المؤولين لها مذهب بعيد عن الصواب ولا لقاء بينه وبين مذهب السلف . ولا يشفع لبعض الخلف حسن نيتهم ، فحسن النية لا يجعل الباطل حقاً .

صفات المعاني عند المتكلمين

وبين الشيخ أن صفات المعاني عند علماء الكلام سبع صفات فقط ، وينكرون ما عدا هذه السبع .

وضابط صفة المعنى عند علماء الكلام: ما دلّ على معنى وجودي قائم بالذات .

والصفات السبع التي أثبتوها هي: القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة، والسمع ، والبصر ، والكلام . وأنكر هذه المعاني السبعة المعتزلة ، وأثبتوا أحكامها ، فقالوا: هو قادر بذاته ، سميع بذاته ، عليم بذاته ، حيٌّ بذاته، ولم يثبتوا لله قدرة ، ولا علماً ، ولا حياة، ولا سمعاً ، ولا بصراً ، فراراً من تعدد القديم ، وهو مذهبٌ كل العقلاء يعرفون ضلاله وتناقضه ، وأنه إذا لم يقم بالذات علم استحال أن تقول: هي عالمة بلا علم ، وهو تناقض واضح بأوائل العقول .

ثم أورد الشيخ أدلة صفات المعاني ، وذكر الفرق بين صفات الباري وصفات المخلوق:

١ ـ وصفوا الله تعالى بالقدرة ، واثبتوا له القدرة ، والله ـ جلَّ وعلا ـ يقول في كتابه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] ونحن نقطع أنه تعالى متصف بصفة القدرة على الوجه اللائق بكماله وجلاله .

كذلك وصف بعض المخلوقين بالقدرة فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ [2] فأسند القدرة لبعض الحوادث ونسبها إليهم.

ونحن نعلم أنَّ كلَّ ما في القرآن حقٌّ ، وأنَّ للمولى ـ جلَّ وعلا ـ قدرة حقيقية تليق بكماله وجلاله ، كما أن للمخلوقين قدرة حقيقية مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم ، وبين قدرة الخالق وقدرة المخلوق من المنافاة

---

(١) سورة البقرة: ٢٠ .
(٢) سورة المائدة: ٣٤ .

والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وحسبك بونا بذلك .

٢ ، ٣ ـ ووصف تبارك وتعالى نفسه بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه، قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (١) ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(٢) .

ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر، قال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾(٣) ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾(٤) .

ونحن لا نشك أن ما في القرآن حقٌّ ، فلله ـ جلَّ وعلا ـ سمع وبصر حقيقيان لائقان بجلاله وكماله ، كما أن للمخلوق سمعاً وبصراً حقيقيين مناسبين لحاله من فقره وفنائه وعجزه . وبين سمع وبصر الخالق وسمع وبصر المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق .

٤ ـ ووصف نفسه بالحياة ، فقال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾(٥) ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾(٦) ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾(٧) .

ووصف أيضاً بعض المخلوقين بالحياة، قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾(٨) ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾(٩) ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾(١٠) .

ونحن نقطع بأن لله ـ جلَّ وعلا ـ صفة حياة حقيقية لائقة بكماله ، وجلاله ، كما أن للمخلوقين حياة مناسبة لحالهم ، وعجزهم وفنائهم وافتقارهم ، وبين صفة الخالق وصفة المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات

---

(١) سورة المجادلة: ١ .
(٢) سورة الشورى: ١١
(٣) سورة الإنسان: ٢ .
(٤) سورة مريم: ٣٨ .
(٥) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٦) سورة غافر: ٦٥ .
(٧) سورة الفرقان: ٥٨ .
(٨) سورة الأنبياء: ٣٠ .
(٩) سورة مريم: ١٥ .
(١٠) سورة الروم: ١٩ .

الخالق وذات المخلوق ، وذلك بون شاسع بين الخالق وخلقه .

٥- ووصف - جلَّ وعلا - نفسه بالإرادة قال: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[١] ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[٢].

ووصف بعض المخلوقين بالإرادة قال: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾[٣] ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[٤] ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ﴾[٥].

ولا شك أن لله إرادة حقيقية لائقة بكماله ، كما أن للمخلوقين إرادة مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم . وبين إرادة الخالق والمخلوق كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق .

٦- ووصف نفسه - جلَّ وعلا - بالعلم، قال: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٦] ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾[٧] ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾[٨].

ووصف بعض المخلوقين بالعلم قال: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[٩] ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾[١٠].

ولا شك أن للخالق - جل وعلا - علماً حقيقيّا لائقاً بكماله وجلاله محيطاً بكل شيء . كما أن للمخلوقين علماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم ، وبين علم الخالق وعلم المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق .

٧ - ووصف نفسه - جلَّ وعلا - بالكلام ، قال: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

---

(١) سورة البروج: ١٦ .
(٢) سورة يس: ٨٢ .
(٣) سورة الأنفال: ٦٧ .
(٤) سورة الأحزاب: ١٣ .
(٥) سورة الصف: ٨ .
(٦) سورة النور: ٣٥ .
(٧) سورة النساء: ١٦٦ .
(٨) سورة الأعراف: ٧ .
(٩) سورة الذاريات: ٢٨ .
(١٠) سورة يوسف: ٦٨ .

تَكْلِيمًا﴾[1] ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[2].

ووصف بعض المخلوقين بالكلام قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[3]، ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾[4]. ولا شكّ أن للخالق تعالى كلاماً حقيقياً يليق بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين كلاماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق وكلام المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق.

الكلام على الصفات السلبية عند المتكلمين

بين الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ ضابط الصفة السلبية عند المتكلمين فقال: هي الصفة التي دلت على عدم محض. والمراد بها أن تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله، من غير أن تدل على معنى وجودي قائم بالذات.

والذين قالوا هذا جعلوا الصفات السلبية خمساً لا سادس لها، وهي عندهم: القدم، والبقاء، والمخالفة للخلق، والوحدانية، والغنى المطلق الذي يسمونه القيام بالنفس، الذي يعنون به الاستغناء عن الحيز والمحل.

١، ٢ ـ القدم والبقاء:

ونبه الشيخ رحمه الله تعالى إلى أن القدم والبقاء اللذين وصف المتكلمون بهما الله ـ جلَّ وعلا ـ زاعمين أنه وصف بهما نفسه هما المرادان بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾.

والقدم عندهم عبارة عن سلب العدم السابق، إلا أنه عندهم أخص من الأزل، لأن الأزل عبارة عما لا افتتاح له، سواء أكان وجودياً كذات الله وصفاته، أو عدمياً، والقدم عندهم عبارة عما لا أول له، بشرط أن

---

(١) سورة النساء: ١٦٤.
(٢) سورة التوبة: ٦.
(٣) سورة يوسف: ٥٤.
(٤) سورة يس: ٦٥.

يكون وجودياً ، كذات الله متصفة بصفات الكمال والجلال .

وبين الشيخ ـ رحمه الله ـ أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصف المخلوقين بالقدم ، قال: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (١) ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (٢) ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ (٣).

ووصف المخلوقين بالبقاء قال: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (٤)، ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ (٥) ولا شك أن ما وصف به الله من هذه الصفات مخالف لما وصف به الخالق.

وصف الله بالقدم والبقاء لم يرد في الكتاب والسنة:

وبين الشيخ ـ رحمه الله ـ تعالى أن الله لم يصف في كتابه نفسه بالقدم ، وبعض السلف كره وصفه بالقدم ؛ لأنه قد يطلق مع سبق العدم، نحو ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (٦)، ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (٧)، ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ (٨).

وقد زعم بعضهم أنه جاء فيه حديث ، وبعض العلماء يقول هو يدل على وصفه بهذا ، وبعضهم يقول لم يثبت .

أما الأولية والآخرية التي نص الله عليهما في قوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ ﴾ ، فقد وصف المخلوقين أيضاً بالأولية والآخرية ، قال: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ (٩) . ولا شك أن ما وصف الله به نفسه من ذلك لائق بجلاله وكماله كما أن للمخلوقين أوليه وآخرية مناسبة لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم .

---

(١) سورة يوسف: ٩٥ .
(٢) سورة يس: ٣٩ .
(٣) سورة الشعراء: ٧٦ .
(٤) سورة الصافات: ٧٧ .
(٥) سورة النحل: ٩٦ .
(٦) سورة يس: ٣٩ .
(٧) سورة يوسف: ٩٥ .
(٨) سورة الشعراء: ٧٦ .
(٩) سورة المرسلات: ١٦ - ١٧ .

٣ ، ٤ ـ الوحدانية والغنى بالنفس:

وصف نفسه بأنه واحد ، قال: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [١] ووصف بعض المخلوقين بذلك ، قال: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ [٢]

ووصف نفسه بالغنى ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [٣] ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [٤] ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [٥] ، ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [٦].

فهذه صفات السلب ، جاء في القرآن وصف الخالق ووصف المخلوق بها. ولا شك أن ما وصف به الخالق منها لائق بكماله وجلاله ، وما وصف به المخلوق مناسب لحاله وعجزه وفنائه وافتقاره .

تحقيق القول في الصفات المعنوية

ثم تكلم الشيخ على ما أسماه علماء الكلام بالصفات السبع المعنوية التي هي كونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً ، وبين أن حقيقتها هي كيفية الاتصاف بالمعاني السبعة التي ذكرنا .

ومن عدّها من المتكلمين عدها بناء على ثبوت ما يسمونه الحال المعنوية التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية ، لا معدومة ولا موجودة .

ولم يرتض الشيخ إثبات هذا النوع من الصفات ، فقال: « والتحقيق أن هذه خرافة وخيال ، وأن العقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطة ألبتة ، فكل ما ليس بموجود فهو معدوم قطعاً ، وكل ما ليس بمعدوم فهو موجود قطعاً ، ولا واسطة ألبتة ، كما هو معروف عند العقلاء » .

---

(١) سورة البقرة: ١٦٣ .
(٢) سورة الرعد: ٤ .
(٣) سورة إبراهيم: ٨ .
(٤) سورة التغابن: ٦ .
(٥) سورة النساء: ٦ .
(٦) سورة النور: ٣٢ .

صفات الأفعال

ثم تكلم الشيخ على صفات الأفعال ، فقال: وهذه صفات الأفعال جاء في القرآن كثيراً وصف الخالق بها ووصف المخلوق بها ، ولا شك أن ما وصف به الخالق منها مخالف لما وصف به المخلوق ، كالمخالفة التي بين الخالق وذات المخلوق ، ومن هذه الصفات:

١ ـ **الرزق**: وصف الله نفسه ـ جلّ وعلا ـ أنه يرزق خلقه فقال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1]، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[2]، ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[3].

ووصف بعض المخلوقين بصفة الرزق ، قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[4]، ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾[5]، ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾[6].

ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه المخلوق ، كمخالفة ذات الله لذات المخلوق .

٢ ـ **العمل**: ووصف نفسه ـ جلّ وعلا ـ بصفة الفعل وهو العمل ، قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾[7].

ووصف المخلوقين بصفة الفعل التي هي العمل قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[8]، ولا شك أن ما وصف به المخلوق مخالف له كمخالفة ذات الخالق ذات المخلوق.

---

(١) سورة الذاريات: ٥٧ - ٥٨ .
(٢) سورة سبأ: ٣٩ .
(٣) سورة الجمعة: ١١ .
(٤) سورة النساء: ٨ .
(٥) سورة النساء : ٥ .
(٦) سورة البقرة: ٢٣٣ .
(٧) سورة يس: ٧١ .
(٨) سورة الطور: ١٦ .

٣- التعليم: وصف نفسه بأنه يعلم خلقه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[1]، ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[3]

ووصف بعض خلقه بهذه الصفة أيضاً، قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[4]، وجمع المثالين في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾[5].

٤ ـ الإنباء: ووصف نفسه ـ جلَّ وعلا ـ بأنه ينبئ، ووصف المخلوق بأنه ينبىء، وجمع بين الفعل في الأمرين في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[6]. ولا شك أنَّ ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه العبد، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

٥- الإيتاء: ووصف نفسه بصفة الفعل الذي هو الإيتاء. قال جلَّ وعلا: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ﴾[7] ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾[8].

ووصف المخلوقين بالفعل الذي هو الإيتاء، قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾[9]، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[10].

ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به العبد من هذا الفعل كمخالفة ذاته لذاته.

---

(١) سورة الرحمن: ١ - ٤.
(٢) سورة العلق: ٣ - ٥.
(٣) سورة النساء: ١١٣.
(٤) سورة الجمعة: ٢.
(٥) سورة المائدة: ٤.
(٦) سورة التحريم: ٣.
(٧) سورة البقرة: ٢٦٩.
(٨) سورة هود: ٣.
(٩) سورة النساء: ٢٠.
(١٠) سورة النساء: ٤.

الصفات الجامعة

ثم تكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ على الصفات الجامعة ، كالعلو والعظم والكِبَر والملك والكِبْر والجبروت والعزة والقوة وما جرى ذلك من الصفات الجامعة .

١ ـ ٣: صفات العلو والكبر والعظم:

وصف الله نفسه بالعلو والكبر والعظم فقال: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١)، وقال في وصف نفسه بالعلو والكبر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (٢)، ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (٣).

ووصف بعض المخلوقين بالعظم قال: ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٤)، ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (٥)، ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٦) ووصف بعض المخلوقين بالعلو قال: ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (٧) ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (٨). ووصف بعض المخلوقات بالكبر: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٩)، ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ (١٠).

ولا شك أن ما وصف الله به نفسه من هذه الصفات الجامعة كالعلو والكبر والعظم مناف لما وصف به المخلوق منها ، كمخالفة ذات الخالق ـ جلَّ وعلا ـ لذات المخلوق ، فلا مناسبة بين ذات الخالق وذات المخلوق، كما لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق .

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٢) سورة النساء: ٣٤ .
(٣) سورة الرعد: ٩ .
(٤) سورة الشعراء ٦٣ .
(٥) سورة الإسراء: ٤٠ .
(٦) سورة النمل: ٢٣ .
(٧) سورة مريم: ٥٧ .
(٨) سورة مريم: ٥٠ .
(٩) سورة هود: ١١ .
(١٠) سورة الأنبياء: ٦٣ .

٤ ـ صفة الملك:

ووصف نفسه بالملك ، قال: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ﴾[١] ، ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[٢].

ووصف بعض المخلوقين بالملك، قال: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾[٣] ، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ ﴾[٤] ، ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[٥]، ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾[٦].

ولا شكّ أن لله ـ جلا وعلا ـ ملكاً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله ، كما أن للمخلوقين ملكا مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم .

٥ ، ٦ ـ صفة الجبروت والكبرياء:

ووصف نفسه بأنه جبار متكبر في قوله: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾[٧] ووصف بعض المخلوقين بأنه جبار متكبر قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[٨] ، ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[٩] ، ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[١٠] ، ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[١١].

ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذه الصفات مخالف لما وصف به المخلوق كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق .

---

(١) سورة الجمعة: ١ .
(٢) سورة القمر: ٥٥ .
(٣) سورة يوسف: ٤٣ .
(٤) سورة يوسف: ٥٠ .
(٥) سورة الكهف: ٧٩ .
(٦) سورة آل عمران: ٢٦ .
(٧) سورة الحشر: ٢٣ .
(٨) سورة غافر: ٣٥ .
(٩) سورة الشعراء: ١٣٠ .
(١٠) سورة الزمر: ٦٠ .
(١١) سورة ابراهيم: ١٥ .

٧ ـ صفة العزة:

وصف - جلَّ وعلا - نفسه بالعزة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]، ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾[٢].

ووصف بعض المخلوقين بالعزة، قال: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾[٣]، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾[٤]، وجمع المثالين في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذا الوصف مناف لما وصف به المخلوق، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

٨ ـ صفة القوة:

ووصف نفسه - جلَّ وعلا - بالقوة، قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[٦]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٧].

ووصف بعض المخلوقين بالقوة، قال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[٨]، وقال - جلَّ وعلا -: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾[٩].

وجمع بين المثالين في قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[١٠].

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٠.
(٢) سورة ص: ٩.
(٣) سورة يوسف: ٥١.
(٤) سورة ص: ٢٣.
(٥) سورة المنافقون: ٨.
(٦) سورة الذاريات: ٥٧ - ٥٨.
(٧) سورة الحج: ٤٠.
(٨) سورة هود: ٥٢.
(٩) سورة الروم: ٥٤.
(١٠) سورة فصلت: ١٥.

الصفات التي اختلف فيها المتكلمون

ثم تكلم الشيخ على الصفات التي اختلف فيها المتكلمون ، هل هي صفات فعل أو صفات معنى ؟ والذي حققه الشيخ أنها صفات معان قائمة بذات الله ـ جلَّ وعلا ـ ومن هذه الصفات:

١ ، ٢ ـ **صفة الرأفة والرحمة**: وصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) . ووصف بعض المخلوقين بذلك ، فقال في وصف نبينا صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

٣ـ **صفة الحلم**: وصف نفسه ـ سبحانه ـ بالحلم ، قال: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (٣) ، ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٤) ، ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (٥) .

ووصف بعض المخلوقين بالحلم، قال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ (٦) ، ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ (٧) .

٤ ـ **صفة المغفرة**: وصف نفسه ـ سبحانه ـ بالمغفرة ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٨) ، ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ (٩) .

ووصف بعض المخلوقين بالمغفرة ، قال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (١٠) ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ (١١) ، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا

---

(١) سورة النحل: ٧ .
(٢) سورة التوبة: ١٢٨ .
(٣) سورة الحج: ٥٩ .
(٤) سورة البقرة: ٢٣٥ .
(٥) سورة البقرة: ٢٦٣ .
(٦) سورة الصافات: ١٠١ .
(٧) سورة التوبة: ١١٤ .
(٨) سورة البقرة: ١٧٣ .
(٩) سورة البقرة: ٢٨٤ .
(١٠) سورة الشورى: ٤٣ .
(١١) سورة البقرة: ٢٦٣ .

يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [1].

ولا شك أن ما وصف به خالق السموات والأرض من هذه الصفات حق لائق بكماله وجلاله لا يجوز أن ينفى خوفاً من التشبيه بالخلق ، وأن ما وصف به الخلق من هذه الصفات حق مناسب لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم .

حال النافين لصفات الكمال والجلال

وبعد أن بين الشيخ ما في منهج علماء الكلام من خلل ، وفصل القول في المنهج القرآني الإيماني الذي كشف الحق وأنار الدرب ختم كلامه قائلا:

« وعلى كل حال فلا يجوز للإنسان أن يتنطع إلى وصف أثبته الله ـ جلَّ وعلا ـ لنفسه فينفي هذا الوصف عن الله متهجماً على ربّ السموات والأرض ، مدعياً عليه أن هذا الوصف الذي تمدح به نفسه أنه لا يليق به ، وأنه ينفيه عنه ، ويأتيه بالكمال من كيسه الخاص ، فهذا جنون وهوس ، ولا يذهب إليه إلا من طمس الله بصائرهم » .

---

(١) سورة الجاثية: ١٤ .

صفة الاستواء صفة كمال لا صفة نقص

ولبيان عظم جناية علماء الكلام على صفات الباري ضرب الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله ـ مثلا بصفة عظيمة من صفاته هي صفة الاستواء، فقال: فهذه صفة الاستواء التي كثر فيها الخوض ، ونفاها كثير من الناس بفلسفة منطقية ، وأدلة جدلية أبطلوا بها الحق ، وأحقوا بها الباطل ، قد تجرأ الآلاف ممن يدعون الإسلام فنفوها عن ربِّ السموات والأرض بأدلة منطقية .

فيقولون مثلاً: لو كان مستوياً على عرشه لكان مشابهاً للخلق ، لكنه غير مشابه للخلق ، فينتج أنه غير مستو على العرش . وهذه النتيجة باطلة لمخالفتها صريح القرآن .

وبين الشيخ ـ رحمه الله ـ أن صفة الاستواء صفة كمال وجلال ، تمدح بها رب السموات والأرض نفسه ، والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أن الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله ، التي هي منها ، ثم استعرض النصوص التي وردت فيها هذه الصفة للتدليل على صحة ما قرره:

١ - أول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة الأعراف، قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٢ - الموضع الثاني في سورة يونس، قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤ .

بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[1].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا الكمال والجلال ؟

٣ - الموضع الثالث في سورة الرعد، في قوله - جلَّ وعلا -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۚ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٤ - الموضع الرابع في سورة طه: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[3].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

---

(١) سورة يونس: ٣ - ٦ .
(٢) سورة الرعد: ٢ ـ ٤ .
(٣) سورة طه: ١ - ٨ .

٥ - الموضع الخامس في سورة الفرقان في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (١).

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا الكمال والجلال ؟

٦ - الموضع السادس في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الغاية من الجلال والكمال ؟

٧ - الموضع السابع في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣).

---

(١) سورة الفرقان: ٥٨ - ٥٩ .
(٢) سورة السجدة: ٣ - ٩ .
(٣) سورة الحديد: ٣ - ٤ .

فالشاهد أن هـذه الصفات التي يظن الجاهلون أنهـا صفة نقص ويتهـجمون على رب السموات والأرض بأنه وصف نفسه بصـفة نقص . ثم يسببون عن هذا أن ينفـوها ويؤولوها ، مع أن الله ـ جلَّ وعـلا ـ تمدَّح بهـا ، وجعلهـا من صفات الجلال والكمال ، مقرونة بما يبهر من صفات الجلال والكمال ، وهذا يدل علـى جـهل وهوس من ينـفي بعض صـفـات الله ـ جلَّ وعـلا ـ بالتأويل .

المطلب السادس

قواعد مهمة في صفات الله وأسمائه

هناك عدة قواعد مهمة ، ونقاط رئيسة ، نبه إليها العلماء في هذا الباب نسوقها موجزة مختصرة .

القاعدة الأولى: القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر:[1]

بهذه القاعدة نرد على عدة طوائف:

أ ـ الذين يثبتون بعض الصفات وينفون بعضها ، كالذين يثبتون لله الحياة، والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والإرادة ، ويجعلونها صفات حقيقية ، ثم ينازعون في محبة الله ورضاه ، وغضبه وكراهيته ، ويجعلون ذلك مجازاً ، أو يفسرونه بالإرادة ، أو يفسرونه بالنعم والعقوبات.

فيقال لهؤلاء: لا فرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه ، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر ، فإن كنتم تقولون: حياته وعلمه كحياة المخلوقين وعلمهم، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته كذلك .

وإن قلتم له حياة وعلم وإرادة تليق به ولا تشبه حياة المخلوقين وعلمهم وإرادتهم ، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته وغضبه كذلك.

وإن قلتم: إن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فكذلك يقال: الإرادة ميل النفس إلى جلب مصلحة أو دفع مضرة ، فإن قلتم: هذه إرادة مخلوق ، قلنا: هذا غضب مخلوق .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/١٧ .

ب ـ **الذين يثبتون الأسماء وينفون الصفات** ، فيقولون حي بلا حياة ، عليم بلا علم ... الخ .

فهؤلاء يقال لهم: لا فرق بين إثبات الأسماء ، وإثبات الصفات ، فإنك إن قلت إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي التشبيه أو التجسيم لأنا لا نجد متصفاً بالصفات إلا وهو جسم ، قلنا: وكذلك في الأسماء ، إذ لا نجد ما هو مسمى بحي وعليم وقدير إلا ما هو جسم ، فانف أسماء الله ، فإن قالوا: هذه الأسماء تليق بكماله وجلاله ، قلنا: وكذلك صفاته .

جـ ـ **الذين ينفون الأسماء والصفات** ، فإنهم بزعمهم ينفون ذلك حتى لا يشبهوا الله بالموجودات ، فيقال لهم: نفيتم علمه وحياته كما نفيتم أنه عليم حي خشية أن تشبهوه بالموجودات ، ولكن يلزم قولكم هذا تشبيه الله بالمعدومات .

القاعدة الثانية [1] : القول في الصفات كالقول في الذات:

فالله ـ سبحانه ـ له ذات لا تشبه ذوات المخلوقين ، وكذلك صفاته وأفعاله لا تشبه ذوات المخلوقين وأفعالهم .

إذ يلزم من أقر بأن الله حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء أن يقول: إن سمعه وبصره وكلامه الثابت في نفس الأمر لا يشابهه سمع المخلوقين ولا بصرهم ولا كلامهم .

فإن قال قائل: أنا أنفي استواء الله خشية من تشبيه الله بخلقه ، فيقال له: انف وجود الله وذاته ، لأنه يلزم من ذلك تشبيه الله بخلقه ، فإن قال: لله وجود يخصه ، وذات تخصه لا تشبه ذوات المخلوقين ، قلنا: وكذلك نزوله واستواؤه .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ٢٥ .

القاعدة الثالثة: الاتفاق في الأسماء لا يقتضي التساوي في المسميات:

فإننا نعلم أن ما أخبرنا الله تعالى به مما في الجنة من لبن وعسل وخمر حق، وهذه الحقائق وإن كانت موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا فإنها لا تماثلها، بل بينها وبين ما في الدنيا من المباينة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالخالق أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، بل قد تسمي في الدنيا عدة أشياء باسم واحد، ويكون لكل واحد حقيقة تخصه، فإننا نقول مثلاً: يد الجمل، ويد المحفظة، ويد الإنسان، واليد في كل لفظة من الألفاظ الثلاثة لها معنى يخصها.

القاعدة الرابعة: لا يوصف الله بالنفي المحض:

أثبت الله سبحانه وتعالى لنفسه أسماء وصفات، ونفى عن نفسه أسماء وصفات.

والإثبات والنفي في أسمائه وصفاته مجمل ومفصل، فالإثبات المجمل يكون بإثبات الثناء المطلق، والحمد المطلق، والمجد المطلق لله تعالى، ونحو ذلك كما يشير إليه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2].

وأما التفصيل في الإثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت في الكتاب والسنة.

والنفي المجمل يكون بأن ينفي عن الله - عزَّ وجلَّ - كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[3] وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[4].

وأما التفصيل في النفي فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والند

---

(١) سورة الفاتحة.
(٢) سورة النحل: ٦٠.
(٣) سورة الشورى: ١١.
(٤) سورة مريم: ٦٥.

والجهل والعجز والسنة والنوم والعبث ... الخ .

إلا أن منهج القرآن في النفي أن لا ينفي نفياً محضاً ، فلا ينفي القرآن صفة نقص عن الله إلا إذا كانت متضمنة صفة مدح وكمال ، فلا ينفي نفياً مجرداً، كما تفعل بعض الفرق[1]، فقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾[2] فيه نفي السنة والنوم عن الله تعالى، ونفيهما يتضمن كمال الحياة والقيام، فمن كمال حياته: ألا تأخذه سنة (وهي أوائل النوم) ولا نوم، وقوله: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾[3] مستلزم لكمال قدرته وتمامها، إذ المعنى (لا يكرثه ولا يثقله).

ومثل ذلك قوله: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[4] فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض.

وكذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[5] فإن نفي اللغوب (وهو التعب والإعياء) دل على كمال القدرة ونهاية القوة. وكذلك قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[6] أي لا تحيط به الأبصار فهو وإن رئي في الآخرة، ولكنه لعظمته - سبحانه - لا تحيط به الأبصار.

وكذلك كل ما نفاه الله عن نفسه ، فإنه يستلزم صفة ثبوتية يمدح الله بها.

ولم يصف الله نفسه بنفي محض لا يستلزم صفة ثبوتية ، وبذلك يتضح أن الذين يتجهون إلى الإكثار من النفي (أو ما يسمونه السلوب) أخطئوا ؛

(١) الجهمية المحضة . انظر مجموع الفتاوى: ٣/٣٩ .
(٢) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٣) سورة البقرة: ٢٥٥ .
(٤) سورة سبأ: ٣.
(٥) سورة ق: ٣٨ .
(٦) سورة الأنعام: ١٠٣ .

لأن النفي ليس فيه مدح ولا كمال ما لم يتضمن إثباتاً ؛ لأن النفي المحض عدم محض ، والعدم المحض ليس بشيء .

وقد أكثر المبتدعون من النفي المحض فقالوا: لا يتكلم ، ولا يرى ، وليس فوق العالم ، وغلا بعضهم فقالوا: ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا مباينا للعالم ، ولا مخالطا له ... إلى آخر هذا الكلام الغث الذي يجعلون الله به عدماً ... تعالى وتقدس .

القاعدة الخامسة: الألفاظ الموهمة حقاً وباطلا[1]:

الصفات التي وردت في الكتاب والسنة حق يجب الإيمان بها ، وإن لم نفقه معناها .

أما ما يطلقه الناس على الله ـ سبحانه ـ مما لم يرد في الكتاب والسنة مما يتنازع فيه الناس فلا نثبته ولا ننفيه حتى نتبين مراد قائله منه .

فمثلاً يقال لمن نفى الجهة: ماذا تعنى بالجهة ؟ إن كنت تعني أن الله في داخل جرم السماء، وأن السماء تحويه ، فلا يجوز أن نقول: إن الله في جهة، وإن كنت تريد أن الله فوق مخلوقاته فوق السموات فهذا حق.

وكذلك التحيز ، إن كان المراد أن الله تحوزه المخلوقات فهذا باطل قطعاً، وإن أراد أنه منحاز عن المخلوقات أي مباين لها فهذا حق .

القاعدة السادسة: التعطيل سببه اعتقاد التشبيه أولا:

وقد وضح هذه القاعدة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى، وبين أن أصل البلاء وأسه هو تنجس القلب وتلطخه وتدنسه بأقذار التشبيه ، فإذا سمع ذو القلب المتنجس بأقذار التشبيه صفة من صفات الكمال، التي أثنى الله بها على نفسه ، كنزوله إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الأخير ، وكاستوائه على عرشه ، وكمجيئه يوم القيامة ، وغير ذلك من صفات الجلال والكمال ، فإن أول ما يخطر في ذهنه أن هذه الصفة

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ٤١ .

تشبه صفة الخلق ، فيكون قلبه متنجساً بأقذار التشبيه ، لا يقدّر الله حق قدره، ولا يعظم الله حق عظمته ، حيث يسبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق ، فيكون أولا نجس القلب متقذراً بأقذار التشبيه ، فيدعوه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي صفة الخالق ـ جلّ وعلا ـ عنه ، بادعاء أنها تشبه صفات المخلوق ، فيكون أولاً مشبهاً، وثانياً معطلاً ، فصار ابتداء وانتهاءً متهجماً على رب العالمين ، ينفي صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق به .

وذكر الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ قاعدة أصولية أطبق عليها من يعتد به من أهل العلم . وهي أن النبي ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ولا سيما في العقائد . ولو مشينا على فرضهم الباطل ، أن ظاهر آيات الصفات الكفر ، فالنبي ﷺ لم يؤول الاستواء (بالاستيلاء) ، ولم يؤول شيئاً من هذه التأويلات ، ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادر النبي ﷺ إلى بيانها ؛ لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة.

وبين الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ أن الواجب على المسلم إذا سمع وصفاً وصف به خالق السموات والأرض نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ أن يملأ صدره من التعظيم ، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين ، فيكون القلب منزّها معظما له جلّ وعلا ، غير متنجس بأقذار التشبيه ، فتكون أرض قلبه قابلة للإيمان والتصديق بصفات الله التي تمدّح بها، وأثنى عليه بها نبيه ﷺ، على غرار قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1]، والشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق ، فيضطر المسكين أن ينفي صفة الخالق بهذه الدعوى الكاذبة الخائنة .

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

القاعدة السابعة: آيات الصفات ليست من المتشابه:

ذكر الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله ـ أن كثيراً من الناس يطلق على آيات الصفات اسم المتشابه ، وهذا من جهة غلط ، ومن جهة قد يَسُوغ كما بينه الإمام مالك بن أنس بقوله: « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب » .

كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ، واطرده في جميع الصفات ؛ لأن هذه الصفات معروفة عند العرب ، إلا أن ما وصف به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجل وأعظم من أن يشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، كما أن ذات الخالق ـ جلَّ وعلا ـ حق ، والمخلوقون لهم ذوات ، وذات الخالق ـ جلَّ وعلا ـ أكمل وأنزه وأجل من أن تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين .

القاعدة الثامنة: ليس ظاهر الصفات التشبيه حتى تحتاج إلى تأويل:

المقرر في الأصول أن الكلام إن دل على معنى لا يحتمل غيره فهو المسمى (نصاً) كقوله تعالى: مثلاً ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ، فإذا كان يحتمل معنيين أو أكثر فلا يخلو من حالتين: إما أن يكون أظهر في أحد الاحتمالين من الآخر ، وإما أن يتساوى بينهما .

فإن كان الاحتمال يتساوى بينهما فهذا الذي يسمى في الاصطلاح: (المجمل) كما لو قلت: (عدا اللصوص البارحة على عين زيد) فإنه يحتمل أن تكون عينه الباصرة عوروها ، أو عينه الجارية غوروها ، أو عينه ذهباً وفضة سرقوها ، فهذا مجمل ، وحكم المجمل أن يتوقف عنه إلا بدليل يدل على التفصيل .

أما إذا كان نصا صريحاً ، فالنص يعمل به ، ولا يعدل عنه إلا بثبوت النسخ .

فإذا كان أظهر في أحد الاحتمالين فهو المسمى بـ (الظاهر)، ومقابله

يسمى (محتملاً مرجوحاً)، والظاهر يجب الحمل عليه إلا لدليل صارف عنه ، كما لو قلت: « رأيت أسداً » فهذا ظاهر في الحيوان المفترس ، محتمل للرجل الشجاع .

وعلى ذلك فهل المتبادر من آيات الصفات من نحو قوله : ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وما جرى مجرى ذلك هو مشابهة الخلق ، حتى يجب علينا أن نؤول ونصرف اللفظ عن ظاهره ؟ أو ظاهرها المتبادر منها تنزيه رب السموات حتى يجب علينا أن نقره على الظاهر من التنزيه ، والجواب: أن كل وصف أسند إلى رب السموات والأرض ، فظاهره المتبادر منه عند كل مسلم هو التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق .

فإقراره على ظاهره هو الحق ، وهو تنزيه رب السموات والأرض عن مشابهة الخلق في شيء من صفاته . فهل ينكر عاقل أن المتبادر للأذهان السليمة أن الخالق ينافي المخلوق في ذاته وسائر صفاته . لا والله لا يعارض في هذا إلا مكابر .

القاعدة التاسعة: حقيقة التأويل:[1]

التأويل الذي فتن به الخلق، وضل به الآلاف من هذه الأمة يطلق في الاصطلاح مشتركاً بين ثلاثة معان:

١ - يطلق على ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال، وهذا هو معناه في القرآن نحو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[2]، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[3]، ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾[4]؛ أي ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال.

٢ - ويطلق التأويل بمعنى التفسير، وهذا قول معروف كقول ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى كذا، أي تفسيره.

٣ - أما في اصطلاح الأصوليين فالتأويل: هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل.

وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه له عند علماء الأصول ثلاث حالات:

أ - إما أن يصرفه عن ظاهره المتبادر منه لدليل صحيح من كتاب أو سنة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبول لا نزاع فيه. ومثال هذا النوع ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (الجار أحق بصقبه)[5] فظاهر هذا الحديث ثبوت الشفعة للجار.

وحمل هذا الحديث على الشريك المقاسم حمل للفظ على محتمل مرجوح غير ظاهر متبادر، إلا أن حديث جابر الصحيح (فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة)[6] دل على أن المراد بالجار الذي هو أحق

---

(١) ألفت في هذا الموضوع رسالة بعنوان: التأويل خطورته وآثاره.
(٢) سورة النساء: ٥٩.
(٣) سورة يونس: ٣٩.
(٤) سورة الأعراف: ٥٣.
(٥) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة. (منتقى الأخبار: ص: ٤٩٢. ورقمه: ٣١٧٧).
(٦) رواه البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد. (منتقى الأخبار: ص: ٤٩٢).

بصقبه خصوص الشريك المقاسم . فهذا النوع من صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل واضح من كتاب وسنة يجب الرجوع إليه ، وهذا تاويل يسمى تأويلاً صحيحاً وتاويلاً قريباً .

ب ـ الثانية هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشيء يعتقده المجتهد دليلاً ، وهو في نفس الأمر ليس دليلاً ، فهذا يسمى تأويلاً بعيداً ، ويقال له: فاسد . ومثل له بتأويل أبي حنيفة لفظ: (امرأة) في قوله ﷺ: (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل)[1] قالوا حمل هذا على خصوص المكاتبة تأويل بعيد ، لأنه صرف للفظ عن ظاهره المتبادر منه، لأن (أي) في قوله (أي امرأة) صيغة عموم.

وأكدت صيغة العموم بما المزيدة للتوكيد ، فحمل هذا على صورة نادرة هي المكاتبة حمل للفظ على غير ظاهره من غير دليل .

جـ ـ أما حمل اللفظ على غير ظاهره لا لدليل: فهذا لا يسمى تأويلا في الاصطلاح بل يسمى لعباً ، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ . ومن هذا تفسير غلاة الروافض قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾[2] قالوا: عائشة.

ومن هذا النوع صرف آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان ، كقولهم: (استوى) بمعنى : استولى . فهذا لا يدخل في اسم التأويل ، لأنه لا دليل عليه ألبتة . وإنما يسمى في اصطلاح أهل الأصول: لعباً ، لأنه تلاعب بكتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ من غير دليل ولا مستند . فهذا النوع لا يجوز ؛ لأنه تهجم على كلام رب العالمين ، والقاعدة المعروفة عند علماء السلف أنه لا يجوز صرف شيء من كتاب الله ولا سنة رسوله عن ظاهره المتبادر منه ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد (منتقى الأخبار: ٥٣٩ ، ورقمه: ٣٤٥٢) .
(٢) سورة البقرة: ٦٧ .

المطلب السابع
مذهب أهل السنة والجماعة في صفات الله

لخص ابن تيمية مذهب السلف الصالح في هذا الباب فقال:

« فالأصل في هذا الباب أن يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ نفياً وإثباتاً ، فيثبت لله ما أثبته لنفسه ، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه .

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل »[1] .

وقد حذرنا الله من الانحراف عن النهج الذي قرره الله في كتابه في أسمائه تعالى وصفاته، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ «وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمة القبر »[2] .

وقال تعالى منزهاً نفسه عما يصفه به الملحدون في أسمائه الضالون المشركون: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3] ، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4] ، واستثنى من ذلك ما وصفه به عباده المخلصون ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[5] ، وفي الآية الأخرى سلم على المرسلين لسلامة ما قالوه: ووصفوا الله به ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[6] .

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/٣ . وقد قرر عقيدة السلف جمع كبير من العلماء ، منهم الطحاوي ، وقد شرح عقيدته محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي في مؤلف معنون بـ (بشرح العقيدة الطحاوية) ، وأبو الحسن الأشعري في كتابه الجليل (الإبانة عن أصول الديانة) ، والصابوني في كتابه (عقيدة السلف) ، وغيرهم كثير ، ونحن اقتفينا أثرهم ، وسرنا على دربهم ، سائلين الله أن يحشرنا في زمرتهم في يوم الدين .

(٢) معارج القبول: ٨٨/١ .

(٣) سورة الصافات: ١٥٩ .

(٤) سورة الصافات: ١٨٠ .

(٥) سورة الصافات: ١٦٠ .

(٦) سورة الصافات: ١٨١ .

عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري في صفات الله

يشغب بعض من لم يرتض مذهب أهل السنة على أهل السنة مدعياً أن مذهب الأشاعرة يخالف هذا الذي قررناه ، ويدعي أن مذهبهم مذهب أهل السنة ، ونحن نورد هنا المذهب الذي حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة وأصحاب الحديث ، ونص في ختامه أنه معتقده قائل به .

عنون لهذا المبحث بقوله: « هذه حكاية جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة » ثم قال: « جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردّون من ذلك شيئاً [1] ، وأن الله سبحانه إلهٌ واحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنّة حقٌّ ، وأن النار حقٌّ ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله سبحانه على عرشه كما قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[2] ، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[3] وكما قال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾[4] ، وأن له عينين بلا كيف كما قال: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾[5] ، وأنّ له وجها كما قال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[6] .

وأن أسماء الله لا يقال: إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج ، وأقرّوا أن لله سبحانه علماً كما قال: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾[7] وكما قال: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾[8] .

---

(١) لاحظ كيف جعل صحيح الحديث حجّة في العقائد ؛ لأن كلامه هنا في العقائد لا الأحكام ، فهو لا يفرق بين المتواتر والآحاد ، وفعله في استدلاله على مسائل الاعتقاد في كتبه يدل على صحة ما قررناه .

(٢) سورة طه: ٥ .

(٣) سورة ص: ٧٥ .

(٤) سورة المائدة: ٦٤ .

(٥) سورة القمر : ١٤ .

(٦) سورة الرحمن: ٢٧ .

(٧) سورة النساء : ١٦٦ .

(٨) سورة فاطر: ١١ .

وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة ، وأثبتوا لله القوة كما قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[1] .

ويقولون إنّ القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في الوقف واللفظ من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم ، لا يقال: اللفظ بالقرآن مخلوق ، ولا يقال: غير مخلوق .

ويقولون إنّ الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون ، ولا يراه الكافرون ؛ لأنهم عن الله محجوبون قال عزّ وجلّ : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[2] ، وأن موسى عليه السلام سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا ، وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكاً، فاعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا ، بل يراه في الآخرة.

ويصدّقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ أن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : (هل من مستغفر) كما جاء الحديث عن رسول الله ﷺ، ويقرون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[3]، وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[4].

وختم أبو الحسن الأشعري جملة ما حكاه عن أهل السنة وأصحاب الحديث بقوله: « فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وبه نستعين ، وعليه نتوكل ، وإليه المصير »[5].

وبهذا النقل يتضح لك موافقة معتقد أبي الحسن الأشعري لمعتقد أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته[6].

---

(١) سورة فصلت: ١٥ .
(٢) سورة المطففين: ١٥ .
(٣) سورة الفجر: ٢٢ .
(٤) سورة ق: ١٦ .
(٥) راجع مقالات الإسلاميين : ص٢٩٠ ـ ٢٩٧ ، وقد اقتصرنا على نقل ما يتعلق بصفات الله فحسب ، أما بقية معتقد أهل السنة وأهل الحديث الذي رضيه فلم ننقله منه .
(٦) وقد ألفت رسالة لطيفة تبين معتقد أبي الحسن الأشعري ومنهجه.